العدد 14 مجلة دراسات في الإنسانيات والعلوم التربوية تموز 2026
No. 14 Journal of Studies in Humanities and Educational Sciences July 2026
Print ISSN 3006-3256 Online ISSN 3006-3264

البرهمان بين التفسير الحضاري عند البيروني والقراءة الحديثة عند هوستن سميث: دراسة تحليلية

ا.م.د. ازهار هادي فاضل
م.د. نادية جاسم محمد
جامعة الموصل/كلية التربية للعلوم الانسانية/قسم التاريخ
azhar_hade@yahoo.com
sagedabd147@uomosul.edu.iq

الملخص

يتناول هذا البحث تحليل مفهوم البرهمان بوصفه أحد المفاهيم المركزية في الفلسفة الدينية للهندوسية، من خلال قراءة مقارنة بين تفسيرين ينتميان إلى سياقين حضاريين مختلفين، هما تفسير العالم المسلم أبي الريحان البيروني في القرن الخامس الهجري، وتفسير الباحث الأمريكي هوستن سميث في إطار الدراسات الحديثة للأديان. ويسعى البحث إلى الكشف عن طبيعة هذا المفهوم في النصوص الفلسفية الهندوسية، ولا سيما في الأوبنشاد، ثم تحليل الطريقة التي فهم بها كل من البيروني وسميث هذا المفهوم في ضوء مناهجهما الفكرية المختلفة.تعتمد الدراسة على المنهج التحليلي المقارن، إذ تبدأ بتحليل مفهوم البرهمان في النصوص الهندوسية المقدسة، ثم تنتقل إلى دراسة تفسيره عند البيروني في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، قبل أن تتناول قراءة هوستن سميث لهذا المفهوم في إطار علم الأديان المقارن. كما تحاول الدراسة إبراز الأبعاد النصية والفلسفية والمنهجية التي تشكلت في ضوئها تفسيرات هذا المفهوم.وقد أظهرت الدراسة أن البرهمان يمثل في الفكر الهندوسي الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الكون، وأن تفسير هذا المفهوم يختلف تبعًا للسياق الحضاري والمنهجي الذي ينتمي إليه الباحث. فبينما حاول البيروني تفسيره باستخدام المصطلحات الفلسفية المألوفة في الفكر الإسلامي، ركز هوستن سميث على البعد الروحي والميتافيزيقي لهذا المفهوم في إطار الدراسات الحديثة للأديان. وتخلص الدراسة إلى أن المقارنة بين هاتين القراءتين تسهم في تعميق فهم مفهوم البرهمان، كما تكشف عن أهمية الدراسات المقارنة للأديان في فهم التفاعل الفكري بين الحضارات.

الكلمات المفتاحية :البرهمان؛ الفلسفة الهندوسية؛ البيروني؛ هوستن سميث؛ الأوبنشاد؛ الدراسات المقارنة للأديان؛ الفهم العابر للحضارات.

Brahmanism between Al-Biruni's civilizational interpretation and Huston Smith's modern reading: An analytical study

Assistant Professor Dr. Azhar Hadi Fadhil,
Dr. Nadia Jassim Mohammed

Abstract

This research analyzes the concept of Brahman as a central concept in Hindu religious philosophy through a comparative reading of two interpretations belonging to different cultural contexts: that of the Muslim scholar Abu Rayhan al-Biruni in the 5th century AH (11th century CE), and that of the American scholar Huston Smith within the framework of modern religious studies. The research seeks to uncover the nature of this concept in Hindu philosophical texts, particularly the Upanishads, and then analyze how al-Biruni and Smith understood it in light of their differing intellectual approaches.The study employs a comparative analytical method, beginning with an analysis of the concept of Brahman in Hindu sacred texts. It then moves to an examination of al-Biruni's interpretation in his book, *Tahqiq ma li-l-Hind min maqula maqbula fi al-'aql aw mardhula* (Verification of What India Has to Say, Acceptable to

Reason or Unacceptable), before addressing Huston Smith's reading of the concept within the framework of comparative religion. The study also attempts to highlight the textual, philosophical, and methodological dimensions that have shaped these interpretations of the concept. The study revealed that Brahman, in Hindu thought, represents the absolute truth upon which the structure of the universe is based, and that the interpretation of this concept varies according to the cultural and methodological context of the researcher. While Al-Biruni attempted to interpret it using philosophical terminology familiar to Islamic thought, Huston Smith focused on the spiritual and metaphysical dimensions of this concept within the framework of modern studies of religions. The study concludes that comparing these two interpretations contributes to a deeper understanding of the concept of Brahman and reveals the importance of comparative religion studies in understanding the intellectual interaction between civilizations.

Keywords: Brahman; Hindu philosophy; Al-Biruni; Huston Smith; Upanishads; Comparative religion studies; Intercultural understanding

المقدمة: يُعد مفهوم البرهمان (Brahman) من أكثر المفاهيم مركزية في الفلسفة الدينية الهندوسية، إذ يمثل الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الكون والوجود في الفكر الهندي القديم، وقد احتل مكانة محورية في النصوص الأوبنشادية التي شكلت الأساس الفلسفي للهندوسية الكلاسيكية. ويرتبط البرهمان في هذه النصوص بمفهوم الأصل الكوني الذي تنبثق منه الموجودات كافة وتعود إليه في نهاية المطاف، الأمر الذي جعله محوراً للعديد من التأملات الميتافيزيقية في التراث الهندي[1].وقد شهد مفهوم البرهمان تطوراً ملحوظاً عبر المراحل المختلفة للفكر الهندوسي، إذ انتقل من دلالات مبكرة ظهرت في النصوص الفيدية إلى بناء فلسفي متكامل في الأوبنشاد، حيث أصبح يعبر عن الحقيقة المطلقة المتجاوزة للزمان والمكان، والتي تشكل الأساس النهائي للوجود[2]. ومن هنا اكتسب هذا المفهوم أهمية خاصة في مدارس الفيدانتا المختلفة التي جعلت منه نقطة الانطلاق في تفسير العلاقة بين الإنسان والعالم والمطلق[3].

ولم يقتصر الاهتمام بمفهوم البرهمان على المفكرين الهنود، بل امتد إلى عدد من الباحثين الذين سعوا إلى فهم الفلسفة الهندوسية وتحليل مفاهيمها الأساسية. ويُعد أبو الريحان البيروني من أبرز هؤلاء الباحثين، إذ قدم في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» عرضاً موسعاً للمعتقدات والفلسفات الهندية، محاولاً نقلها إلى القارئ المسلم بلغة علمية اتسمت بدرجة كبيرة من الموضوعية والحياد.[4] وقد مثلت دراسته واحدة من أقدم المحاولات المنهجية لفهم الفكر الهندي من داخل بنيته الثقافية والفلسفية.

وفي الدراسات الحديثة للأديان برز هوستن سميث بوصفه أحد أهم الباحثين الذين تناولوا الأديان العالمية من منظور مقارن، حيث قدم تفسيراً لمفهوم البرهمان بوصفه الحقيقة المطلقة التي تشكل جوهر الرؤية

---

(1) Radhakrishnan, Sarvepalli, Indian Philosophy, Oxford University Press, Oxford, 1923, Vol.1, p.53.

(2).Surendranath Dasgupta, A History of Indian Philosophy, Vol. 1, Cambridge: Cambridge University Press, 1922, pp. 436–440.

(3) Arvind Sharma, Classical Hindu Thought, Oxford: Oxford University Press, 2000, pp. 88–94.

(4) أبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، 1958، ص 7–8.

الكونية للهندوسية، وربط هذا المفهوم بالتجربة الروحية التي تسعى إلى تجاوز حدود الذات الفردية والوصول إلى إدراك الوحدة الكونية الشاملة[1].

وتنبع أهمية دراسة مفهوم البرهمان من كونه أحد المفاهيم الفلسفية الكبرى التي أسهمت في تشكيل الرؤية الهندوسية للوجود، كما أن المقارنة بين تفسير البيروني وتفسير هوستن سميث تتيح الكشف عن أثر السياقات الحضارية والمنهجية المختلفة في فهم المفاهيم الدينية والفلسفية. ومن هذا المنطلق يسعى هذا البحث إلى تحليل مفهوم البرهمان في النصوص الهندوسية المقدسة، وبيان أبعاده الفلسفية والدينية، ثم دراسة تفسيره عند البيروني وهوستن سميث من أجل الكشف عن أوجه الاتفاق والاختلاف بين القراءتين وإبراز قيمتهما في الدراسات المقارنة للأديان.

إشكالية البحث

كيف تشكل مفهوم البرهمان في النصوص الهندوسية المقدسة؟ وكيف فسره كل من أبي الريحان البيروني وهوستن سميث؟ وما أثر الخلفية الحضارية والمنهجية لكل منهما في فهم هذا المفهوم؟

أسئلة البحث

1. ما المقصود بالبرهمان في النصوص الهندوسية المقدسة؟
2. كيف عرض البيروني مفهوم البرهمان في كتابه «تحقيق ما للهند»؟
3. كيف فسر هوستن سميث مفهوم البرهمان في إطار الدراسات الحديثة للأديان؟
4. ما أوجه الاتفاق والاختلاف بين التفسيرين؟
5. ما أثر السياق الحضاري والمنهجي في تشكيل كل قراءة؟

فرضيات البحث

1. يمثل البرهمان الحقيقة المطلقة والمحور الميتافيزيقي الأساسي في الفكر الهندوسي.
2. تأثر تفسير البيروني للبرهمان بالمفاهيم الفلسفية السائدة في التراث الإسلامي.
3. تأثر تفسير هوستن سميث بالمنهج الظاهراتي والدراسات الحديثة للأديان.
4. تكشف المقارنة بين القراءتين عن تباين منهجي مع وجود تقارب في إدراك الطبيعة الميتافيزيقية للبرهمان.

منهج البحث : يعتمد البحث على:

- المنهج التحليلي: لتحليل النصوص الهندوسية المتعلقة بالبرهمان.
- المنهج المقارن: للمقارنة بين تفسير البيروني وتفسير هوستن سميث.
- المنهج التاريخي: لتتبع تطور مفهوم البرهمان وسياقاته الفكرية.

الفصل الأول: مفهوم البرهمان في النصوص الهندوسية المقدسة

المبحث الأول: الجذور الفيدية لمفهوم البرهمان

[1] Huston Smith, The World's Religions, New York: HarperCollins, 1991, pp. 52–58.

يُعد مفهوم البرهمان (Brahman) من أكثر المفاهيم تعقيداً وعمقاً في الفكر الديني الهندوسي، إلا أن هذا المفهوم لم يظهر بصورته الفلسفية المتكاملة منذ البداية، بل مرّ بمراحل تطور طويلة بدأت في النصوص الفيدية المبكرة قبل أن تبلغ نضجها الكامل في الأوبنشاد. ولذلك فإن فهم البرهمان يقتضي العودة إلى الجذور الفكرية الأولى التي تشكل منها هذا المفهوم داخل التراث الديني الهندي.

تُعد الفيدا أقدم النصوص الدينية في الهندوسية، وقد شكّلت الأساس الذي انبثقت منه مختلف الاتجاهات الفلسفية والدينية اللاحقة. وفي هذه المرحلة المبكرة لم يكن البرهمان يشير بصورة مباشرة إلى الحقيقة المطلقة كما ظهر لاحقاً في الأوبنشاد، بل كان يرتبط بمعانٍ دينية وشعائرية تدل على القوة المقدسة الكامنة في الكلمة والطقس الديني. وقد ارتبط المصطلح بالفعل السنسكريتي (Bṛh) الذي يعني النمو أو التوسع أو التعاظم، الأمر الذي منح المفهوم دلالات ترتبط بالقوة الكونية المتجاوزة للحدود المادية.[1]

ويرى عبد الرحمن بدوي أن الفكر الهندي القديم اتجه منذ مراحله الأولى إلى البحث عن أصل كلي يفسر الوجود ويكشف الوحدة الكامنة وراء ظواهر الكون المتعددة، وهو ما هيأ الأرضية الفكرية لتطور مفهوم البرهمان من دلالة دينية مرتبطة بالشعائر إلى مفهوم فلسفي أكثر شمولاً واتساعاً[2]

ويشير عدد من الباحثين إلى أن استعمال لفظ البرهمان في الريغ فيدا كان يدل في البداية على القوة المقدسة الملازمة للتراتيل والشعائر الدينية، إذ كان يُنظر إلى الكلمة المقدسة بوصفها قوة فاعلة قادرة على التأثير في النظام الكوني. ومن هنا ارتبط البرهمان في الفكر الفيدي المبكر بفكرة القداسة الكامنة في اللغة الدينية أكثر من ارتباطه بمفهوم المبدأ الكوني المجرد.[3]

ويؤكد حسين مجيب المصري أن النصوص الفيدية الأولى لم تكن تنظر إلى البرهمان بوصفه الحقيقة المطلقة بالمعنى الفلسفي الذي ظهر لاحقاً، وإنما بوصفه قوة مقدسة مرتبطة بالتراتيل والطقوس الدينية، ثم تطور هذا الفهم تدريجياً مع تطور الفكر الهندي[4]

ومع تطور الفكر الديني الهندي أخذ المفهوم يكتسب أبعاداً أوسع من وظيفته الطقسية الأولى. فالنصوص الفيدية المتأخرة بدأت تطرح تساؤلات تتجاوز حدود الشعائر إلى البحث في أصل الكون ومصدر الوجود. ويظهر ذلك بصورة واضحة في «نشيد الخلق» (Nasadiya Sukta) الوارد في الريغ فيدا، والذي يُعد من أقدم النصوص الفلسفية في التراث الهندي. ففي هذا النشيد يرد التساؤل حول أصل الكون بطريقة تتجاوز التفسيرات الأسطورية التقليدية، حيث يقول النص:

'In the beginning there was neither existence nor non-existence; there was no realm of air, no sky beyond it… There was One'.[5]

"في البدء لم يكن وجود ولا عدم، ولم يكن فضاء ولا سماء... بل كان هناك الواحد.."[6]

ويرى أحمد شلبي أن أهمية هذه النصوص لا تكمن في تناولها لمسألة الخلق فحسب، وإنما في أنها تعكس انتقال الفكر الديني الهندي من التفسيرات الأسطورية إلى التأملات الفلسفية التي تبحث في أصل الوجود وطبيعته، وهو الاتجاه الذي أسهم لاحقاً في بلورة مفهوم البرهمان بصورته الميتافيزيقية[1]

---

(1) Gavin Flood, An Introduction to Hinduism, Cambridge: Cambridge University Press, 1996, p. 84.

(2) عبد الرحمن بدوي، فلسفة الهند، الكويت، وكالة المطبوعات، ص45

(3) Heinrich Zimmer, Philosophies of India, Princeton: Princeton University Press, 1951, pp. 71–73

(4) حسين مجيب المصري، الهندوسية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ص62

(5) Griffith, Ralph T. H., Rig Veda, Delhi, Motilal Banarsidass, 1992, p.25

(6) Radhakrishnan, Indian Philosophy, pp. 89–91.

ويكشف هذا النص عن بداية الانتقال من التفكير الأسطوري إلى التأمل الفلسفي في طبيعة الوجود وأصله. فبدلاً من الاقتصار على روايات الخلق المرتبطة بالآلهة، يظهر اهتمام واضح بالبحث عن مبدأ أول يفسر نشأة الكون والنظام الكوني.

وقد مهدت هذه التأملات الطريق أمام ظهور التصور الفلسفي للبرهمان في النصوص اللاحقة، إذ بدأ الفكر الهندي يتجه نحو البحث عن حقيقة كلية تقف وراء التعدد الظاهر للعالم. ويرى داسغوبتا أن هذا التحول يمثل إحدى أهم المراحل في تطور الفلسفة الهندية، حيث انتقل الاهتمام من الطقوس الدينية إلى التساؤلات الميتافيزيقية المتعلقة بالوجود والحقيقة المطلقة.[2]

كما يلاحظ هاينريش زيمر أن الفكر الفيدي المتأخر بدأ يتعامل مع الكون بوصفه وحدة مترابطة تخضع لقانون كوني شامل، وأن هذا التصور كان من العوامل التي مهدت لظهور مفهوم البرهمان باعتباره المبدأ الكلي الذي يقوم عليه الوجود بأسره.[3]

ومن ثم يمكن القول إن الجذور الفيدية لمفهوم البرهمان لا تكمن فقط في استعمال المصطلح ذاته، بل في التحول الفكري الذي شهده التراث الهندي من الاهتمام بالشعائر والطقوس إلى البحث عن الحقيقة الكونية الشاملة. وقد شكل هذا التحول الأساس الذي قامت عليه التأملات الأوبنشادية اللاحقة، والتي منحت مفهوم البرهمان أبعاده الميتافيزيقية الكاملة بوصفه الحقيقة المطلقة التي ينبثق منها الكون ويعود إليها.

ويتضح من ذلك أن دراسة البرهمان في مرحلته الفيدية تمثل خطوة ضرورية لفهم تطور الفلسفة الهندوسية، لأن هذا المفهوم لم يظهر فجأة في الأوبنشاد، وإنما كان نتيجة مسار فكري طويل بدأ بالتساؤل عن النظام الكوني وانتهى بالبحث عن المطلق الذي يشكل أصل جميع الموجودات.

وفي هذا السياق يشير محمد عبد السلام محمد إلى أن تطور مفهوم البرهمان يمثل نموذجاً واضحاً لتطور الفلسفة الهندية من الاهتمام بالقضايا الدينية والشعائرية إلى بناء تصورات ميتافيزيقية متكاملة تسعى إلى تفسير الوجود والإنسان والكون ضمن إطار فلسفي شامل[4]

المبحث الثاني: تطور مفهوم البرهمان في الأوبنشاد

يمثل عصر الأوبنشاد المرحلة الأكثر أهمية في تطور مفهوم البرهمان في الفكر الهندوسي، إذ انتقل هذا المفهوم من دلالاته الشعائرية والطقسية التي عرفتها النصوص الفيدية المبكرة إلى مفهوم ميتافيزيقي يعبر عن الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الوجود بأسره. ولذلك ينظر عدد كبير من الباحثين إلى الأوبنشاد بوصفها المرحلة التي شهدت الميلاد الفلسفي الحقيقي لمفهوم البرهمان، حيث أصبح يمثل جوهر الرؤية الكونية للهندوسية ومركزها الفكري.[5]

وقد انطلقت النصوص الأوبنشادية من تساؤلات فلسفية تتعلق بأصل الكون وطبيعة الوجود والحقيقة النهائية الكامنة وراء العالم المحسوس. وفي هذا السياق ظهر البرهمان باعتباره المبدأ الأول الذي تنبثق منه جميع الموجودات وتستمد منه وجودها. ويعد النص الوارد في «تايتيريا أوبنشاد» من أشهر النصوص المؤسسة لهذا التصور، حيث جاء فيه:

That from which all beings are born, by which they live, and into which they enter at death—know that as Brahman."

---

(1) أحمد شلبي، مقارنة الأديان: الهندوسية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص71

(2) Surendranath Dasgupta, A History of Indian Philosophy, pp. 36–42.

(3) Heinrich Zimmer, Philosophies of India, pp. 74–76.

(4) محمد عبد السلام محمد، تاريخ الفلسفة الهندية، القاهرة، دار الثقافة، ص88

(5) Surendranath Dasgupta, A History of Indian Philosophy, pp. 436–440

"ذلك الذي تنبثق منه جميع الكائنات، وبه تحيا، وإليه تعود بعد فنائها، ذلك هو البرهمان."[1]

ويكشف هذا النص عن ثلاثة أبعاد أساسية لمفهوم البرهمان؛ فهو أصل الموجودات، وسبب استمرارها، والغاية التي تنتهي إليها. ولذلك لم يعد البرهمان مجرد قوة مقدسة أو مبدأ غامض، بل أصبح يمثل الحقيقة المطلقة التي تشمل الكون كله وتفسر وجوده.

ويظهر هذا المعنى بصورة أكثر وضوحاً في «تشاندوغيا أوبنشاد» الذي يؤكد وحدة الحقيقة الكونية خلف مظاهر التعدد الظاهرة في العالم. ففي الحوار الشهير بين الحكيم أودالاكا وابنه شفيتاكيتو يرد النص:

"في البدء كان الوجود وحده، واحداً بلا ثان."[2]

ويمثل هذا النص أحد الأسس الفلسفية التي قامت عليها الرؤية الوحدوية في الفكر الهندوسي، إذ يؤكد أن الكثرة التي يشهدها الإنسان في العالم ليست سوى تجليات لحقيقة واحدة سابقة عليها جميعاً. وقد رأى رادهاكريشنان أن هذا النص يعبر عن أول صياغة فلسفية واضحة لفكرة الوحدة المطلقة للوجود في الفكر الهندي.[3]

ومن النصوص الأكثر تأثيراً في تاريخ الفلسفة الهندوسية العبارة الشهيرة:

(Tat Tvam Asi)

"ذلك أنت."[4]

وقد وردت هذه العبارة عدة مرات في تشاندوغيا أوبنشاد، وتشكل أحد أهم المبادئ الفلسفية في التراث الهندوسي. فالمقصود بها أن الذات الإنسانية العميقة ليست منفصلة عن الحقيقة المطلقة، بل ترتبط بها ارتباطاً وجودياً مباشراً. ومن هنا نشأت الفكرة القائلة بوجود علاقة جوهرية بين الآتمان (Atman) والبرهمان (Brahman). وقد أثارت هذه الفكرة نقاشات واسعة بين فلاسفة الهندوسية، لأنها تتجاوز التصور التقليدي للعلاقة بين الإنسان والإله. فالغاية النهائية للمعرفة في الفكر الأوبنشادي ليست مجرد معرفة العالم الخارجي، بل إدراك الهوية العميقة بين الذات الفردية والحقيقة المطلقة. ويرى إكناث إيسواران أن هذه الفكرة تمثل جوهر الرسالة الروحية للأوبنشاد بأكملها.[5]

كما تؤكد نصوص أوبنشادية أخرى الطبيعة المتعالية للبرهمان وصعوبة إخضاعه للتعريفات العقلية أو اللغوية. ففي «بريهادارانياكا أوبنشاد» يرد الوصف المعروف:

"ليس هذا، وليس ذاك." (Neti Neti[6])

ويشير هذا التعبير إلى أن البرهمان يتجاوز جميع الصفات والتحديدات التي يمكن للعقل البشري أن يضعها له. فكل وصف إيجابي يظل قاصراً عن الإحاطة بالحقيقة المطلقة، ولهذا اعتمدت الأوبنشاد أحياناً أسلوب النفي المتكرر للتعبير عن سمو البرهمان وتعاليه.

---

(1) Eknath Easwaran, The Upanishads, California: Nilgiri Press, 2007, p. 21.
(2) Sarvepalli Radhakrishnan, The Principal Upanishads, London: George Allen & Unwin, 1953, p. 447.
(3) Sarvepalli Radhakrishnan, Indian Philosophy, Vol. 1, London: George Allen & Unwin, 1923, pp. 61–63.
(4) Sarvepalli Radhakrishnan, The Principal Upanishads, p. 448
(5) Eknath Easwaran, The Upanishads, pp. 132–134
(6) Sarvepalli Radhakrishnan, The Principal Upanishads, pp. 179–180.

وقد دفع هذا التصور بعض الباحثين إلى اعتبار البرهمان مفهوماً يجمع بين التنزيه المطلق والحضور الكوني في آن واحد. فهو متعالٍ عن العالم من جهة، لكنه في الوقت نفسه حاضر في جميع الموجودات باعتباره أصلها ومصدر وجودها. ويرى غافن فلود أن هذه الثنائية بين التعالي والحضور تمثل إحدى السمات الأساسية للفلسفة الهندوسية الكلاسيكية.[1]

ومن خلال هذه النصوص يتضح أن الأوبنشاد لم تقدم تعريفاً واحداً جامداً للبرهمان، بل عرضته من زوايا متعددة؛ فهو أصل الكون، والحقيقة المطلقة، وأساس الوجود، والغاية النهائية للمعرفة الروحية. وقد أسهم هذا الثراء المفاهيمي في جعله محوراً لمعظم الاتجاهات الفلسفية التي ظهرت لاحقاً في الفكر الهندوسي، ولا سيما مدارس الفيدانتا التي جعلت من تفسير العلاقة بين البرهمان والعالم والإنسان قضيتها المركزية.

وعليه يمكن القول إن الأوبنشاد تمثل المرحلة الحاسمة في تطور مفهوم البرهمان، إذ انتقل خلالها من إطار ديني شعائري إلى بناء فلسفي متكامل يقوم على البحث عن الحقيقة المطلقة الكامنة وراء الوجود. ومن هنا اكتسب البرهمان مكانته بوصفه المفهوم الميتافيزيقي الأهم في الفلسفة الهندوسية، وهو ما يفسر استمرار حضوره في مختلف المدارس الفكرية الهندية حتى العصر الحديث.

المبحث الثالث: البرهمان والآتمن في الفكر الأوبنشادي

يُعد البحث في العلاقة بين البرهمان (Brahman) والآتمن (Atman) من أكثر القضايا عمقاً في الفلسفة الهندوسية، بل إن كثيراً من الباحثين يرون أن جوهر الفكر الأوبنشادي يتمثل في محاولة تفسير طبيعة هذه العلاقة والكشف عن أبعادها الوجودية والروحية. فبينما يشير البرهمان إلى الحقيقة المطلقة أو المبدأ الكوني الأعلى، يدل الآتمن على الذات العميقة أو الروح الإنسانية التي تمثل حقيقة الإنسان الباطنة.[2]

وقد انطلقت الأوبنشاد من التساؤل حول ما إذا كانت الذات الإنسانية منفصلة عن الحقيقة المطلقة أم أنها ترتبط بها ارتباطاً جوهرياً. وفي سبيل الإجابة عن هذا السؤال قدمت النصوص الأوبنشادية عدداً من الصياغات الفلسفية التي أصبحت لاحقاً من أشهر النصوص في التراث الهندوسي.

ومن أهم هذه النصوص ما ورد في تشاندوغيا أوبنشاد:

"Tat Tvam Asi."[3]

«ذلك أنت».[4]

وردت هذه العبارة في سياق تعليم الحكيم أودالاكا لابنه شفيتاكيتو، وهي تعد من أكثر العبارات تأثيراً في تاريخ الفلسفة الهندية. وقد فهمها المفسرون على أنها تؤكد وجود رابطة عميقة بين الذات الإنسانية والحقيقة المطلقة، بحيث لا تكون النفس في جوهرها منفصلة عن أصل الوجود الذي يمثله البرهمان.

ويعزز هذا المعنى نص آخر ورد في بريهادارانياكا أوبنشاد:

"Aham Brahmasmi."[5]

«أنا البرهمان».[1]

---

[1] Gavin Flood, An Introduction to Hinduism, pp. 92–101.
[2] Sharma, Arvind, Classical Hindu Thought, Oxford University Press, 2000, pp. 88–90.
[3] Radhakrishnan, Sarvepalli, The Principal Upanishads, London: George Allen & Unwin, 1953, p. 447.
[4] المصدر نفسه، ص 447.
[5] Radhakrishnan, The Principal Upanishads, p. 168.

ويمثل هذا النص مرحلة متقدمة من التأمل الميتافيزيقي، إذ لا يكتفي بالإشارة إلى وجود علاقة بين الإنسان والحقيقة المطلقة، بل يؤكد أن المعرفة الحقيقية تقود إلى إدراك الوحدة الجوهرية بينهما. وقد اعتبر رادهاكريشنان أن هذا النص يعبر عن إحدى أهم النتائج الفلسفية التي توصلت إليها الأوبنشاد في بحثها عن طبيعة الوجود.[2]

كما تؤكد نصوص أخرى أن إدراك البرهمان لا يتم من خلال المعرفة الحسية أو الإدراك العقلي المجرد، وإنما عبر نوع من المعرفة الباطنية التي تتجاوز حدود التجربة اليومية. ففي كينا أوبنشاد يرد النص الآتي:

That which speech cannot express, but by which speech is expressed, know " That alone to be Brahman."[3]

«ذلك الذي لا تستطيع الكلمات التعبير عنه، والذي بفضله تستطيع الكلمات أن تعبّر، فاعلم أنه هو البرهمان».[4]

ويشير هذا النص إلى أن البرهمان يتجاوز جميع الوسائل المعرفية العادية، وأنه لا يمكن إدراكه بوصفه موضوعاً من موضوعات المعرفة الحسية، لأنه يمثل الأساس الذي تقوم عليه المعرفة ذاتها.

ومن هنا يتضح أن العلاقة بين البرهمان والآتمن لم تكن مجرد مسألة لاهوتية في الفكر الأوبنشادي، بل شكلت محوراً لرؤية فلسفية متكاملة حول الإنسان والكون والحقيقة المطلقة. فالإنسان في هذا التصور ليس كائناً منفصلاً عن الوجود الكلي، وإنما يمثل تجلياً للحقيقة التي يقوم عليها الكون بأسره. ولذلك اعتبرت الأوبنشاد أن الغاية النهائية للحياة الروحية تتمثل في إدراك هذه الحقيقة والوصول إلى المعرفة التي تكشف وحدة الآتمن والبرهمان.

وقد أصبحت هذه الفكرة فيما بعد أساساً لمدرسة الأدفايتا فيدانتا التي طورها شنكرا، والتي جعلت من وحدة البرهمان والآتمن المبدأ المركزي لفلسفتها الميتافيزيقية.[5]

المبحث الرابع: البرهمان بوصفه الحقيقة المطلقة وأصل الوجود في الأوبنشاد

لا يقتصر حضور البرهمان في الأوبنشاد على كونه المبدأ الأعلى للكون أو الحقيقة التي تقف خلف ظواهر العالم المتعددة، بل يتجاوز ذلك ليصبح التفسير الشامل للوجود بأسره. فالنصوص الأوبنشادية لا تنظر إلى العالم بوصفه مجموعة من الموجودات المنفصلة، وإنما ترى أن جميع الكائنات تستمد وجودها من حقيقة واحدة مطلقة تشكل أصلها ومصدر استمرارها وغايتها النهائية. ومن هنا أصبح البرهمان المفهوم المركزي الذي تدور حوله التأملات الميتافيزيقية في الفكر الهندوسي الكلاسيكي.[6]

ويظهر هذا التصور بوضوح في «موندكا أوبنشاد» الذي يقدم أحد أشهر النصوص المتعلقة بأصل الكون وعلاقته بالبرهمان.

---

(1) المصدر نفسه، ص 168

(2) Radhakrishnan, *Indian Philosophy*, Vol. 1, pp. 61–63

(3) Easwaran, Eknath, The Upanishads, California: Nilgiri Press, 2007. 57.

(4) المصدر نفسه، ص 57.

(5) S. Dasgupta, A History of Indian Philosophy, Vol.1, Cambridge University Press, pp. 420–430

(6) Ibid, pp. 38–45.

As a spider sends forth and draws in its thread, as plants grow on the earth, as " hair grows on the head and body of a living person, so does the universe arise from the Imperishable."[1]

«كما يرسل العنكبوت خيوطه ثم يستعيدها، وكما تنبت النباتات من الأرض، وكما ينمو الشعر على رأس الإنسان وجسده، كذلك ينبثق الكون من الأزلي الذي لا يفنى.»[2]

ويحمل هذا النص دلالات فلسفية عميقة. فالأمثلة الثلاثة الواردة فيه ليست أمثلة عشوائية، وإنما تهدف إلى بيان طبيعة العلاقة بين البرهمان والعالم. فالعنكبوت لا يستورد خيوطه من مصدر خارجي، بل يخرجها من ذاته ثم يعيدها إليها، وكذلك العالم لا ينشأ من مادة مستقلة عن البرهمان، بل يصدر عنه ويعود إليه. ويعكس هذا التصور نزعة وحدوية واضحة تجعل البرهمان أصل الوجود ومصدره الداخلي، لا مجرد خالق خارجي منفصل عن الكون.[3]

كما أن تشبيه العالم بالنبات الذي ينبت من الأرض يوحي بعلاقة عضوية بين الأصل والفروع، إذ لا يمكن فهم الكائنات بمعزل عن الحقيقة التي تستمد منها وجودها. أما المثال الثالث المتعلق بنمو الشعر من الجسد الحي فيؤكد أن عملية الخلق ليست فعلاً عرضياً أو طارئاً، بل هي تعبير طبيعي عن حضور القوة الكونية الكامنة في البرهمان.[4]

ويقدم موندكا أوبنشاد نصاً آخر يوضح سمو البرهمان على العالم المحسوس:

Brahman is immortal, before, behind, to the right and left, above and below; " Brahman indeed is all this."[5]

«البرهمان خالد؛ أمام وخلف، وعن اليمين وعن اليسار، وفوق وتحت؛ والبرهمان هو هذا كله.»[6]

ويكشف هذا النص عن رؤية كونية شاملة ترى أن البرهمان ليس موجوداً بين موجودات العالم، بل هو الحقيقة التي تشمل الوجود كله. ولذلك لا يمكن تحديده في مكان أو جهة معينة، لأنه سابق على جميع التحديدات المكانية والزمانية. ويرى عدد من الباحثين أن هذا النص يمثل إحدى أوضح الصياغات لمفهوم الوحدة الكونية في الفكر الأوبنشادي.[7]

ومن النصوص المهمة أيضاً ما ورد في «تشاندوغيا أوبنشاد»:

Sarvam Khalvidam Brahma.""[8]

«إن هذا الوجود كله هو البرهمان.»[9]

---

(1) Mundaka Upanishad, I.1.7.
(2) Easwaran, Eknath, The Upanishads, p. 179
(3) Radhakrishnan, Sarvepalli, The Principal Upanishads , pp. 675–676
(4) المصدر نفسه، ص 676.
(5) Mundaka Upanishad, II.2.11.
(6) Easwaran, The Upanishads, p. 193.
(7) Sharma, Arvind, Classical Hindu Thought, pp. 92–95.
(8) Chandogya Upanishad, III.14.1.
(9) Radhakrishnan, The Principal Upanishads, p. 462.

وقد كان لهذه العبارة تأثير بالغ في تاريخ الفلسفة الهندية، لأنها تؤكد أن التعدد الظاهر في العالم لا يلغي الوحدة الكامنة خلفه. فالكائنات المختلفة ليست حقائق مستقلة بذاتها، وإنما تمثل مظاهر متنوعة للحقيقة المطلقة الواحدة. ومن هنا نشأت لدى عدد من مدارس الفيدانتا النزعة إلى تفسير العالم بوصفه تجلياً للبرهمان لا وجوداً مستقلاً عنه.[1]

وتبرز أهمية هذه النصوص في أنها تنقل مفهوم البرهمان من مجرد مبدأ ميتافيزيقي مجرد إلى رؤية فلسفية متكاملة للكون والإنسان والوجود. فالبرهمان ليس فقط أصل العالم، بل هو أيضاً الحقيقة التي تمنح الموجودات معناها ووحدتها الداخلية. ولهذا أصبحت معرفة البرهمان في الفكر الأوبنشادي الطريق المؤدي إلى التحرر الروحي والخلاص من الجهل الذي يجعل الإنسان أسيراً لعالم التعدد والاختلاف.

ومن خلال هذه النصوص يتضح أن الأوبنشاد أسست تصوراً فلسفياً بالغ العمق للوجود، يقوم على الاعتقاد بأن وراء جميع الظواهر المتغيرة حقيقة ثابتة ومطلقة هي البرهمان. وقد شكل هذا التصور الأساس الذي انطلقت منه معظم المدارس الفلسفية الهندوسية اللاحقة، سواء تلك التي أكدت وحدة الوجود بصورة كاملة أو تلك التي حاولت التوفيق بين وحدة البرهمان وتعدد الموجودات.

الفصل الثاني: تفسير مفهوم البرهمان عند البيروني في ضوء النصوص الهندوسية المقدسة

المبحث الأول: البيروني ومنهجه في دراسة الأديان الهندية

أولاً: التعريف بالبيروني: يُعَدّ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت 440هـ/1048م)[2] واحدًا من أبرز علماء الحضارة الإسلامية الذين أسهموا في دراسة الثقافات والأديان غير الإسلامية دراسةً اتسمت بالعمق والدقة العلمية. وقد تميزت شخصيته العلمية بسعة الاطلاع في مجالات متعددة شملت الفلك والرياضيات والتاريخ والجغرافيا واللغات، الأمر الذي انعكس بوضوح على منهجه في دراسة المجتمعات والشعوب المختلفة. وقد حظيت الحضارة الهندية باهتمام خاص في مشروعه المعرفي، حيث سعى إلى فهمها من خلال مصادرها الأصلية والاحتكاك المباشر بعلمائها وأتباعها.

وقد جاءت ثمرة هذا الاهتمام في كتابه الشهير «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة»، الذي يمثل أحد أهم المؤلفات الإسلامية التي تناولت الفكر الديني والفلسفي في الهند. ويكتسب هذا الكتاب أهميته من كونه لم يقتصر على وصف المظاهر الخارجية للحياة الدينية الهندية، بل حاول تحليل الأسس الفكرية والفلسفية التي تقوم عليها تلك المعتقدات، وهو ما جعله مصدرًا أساسيًا لدراسة الهندوسية في العصور الوسطى[3].

ولد البيروني في خوارزم في بيئة علمية ساعدته على اكتساب معارف واسعة في مختلف العلوم العقلية والنقلية[4]. وقد عُرف بشغفه بالمعرفة وحرصه على تعلم اللغات الأجنبية، الأمر الذي مكّنه من الاطلاع على مصادر متعددة بلغاتها الأصلية. وعندما أتيح له الاحتكاك بالمجتمع الهندي، أولى اهتمامًا خاصًا بتعلم اللغة السنسكريتية حتى يتمكن من فهم النصوص الهندية مباشرة دون الاعتماد على الترجمات أو الروايات غير المباشرة.[5]

---

[1] Flood, An Introduction to Hinduism, pp. 94–98

[2] خير الدين الزركلي، الأعلام، ج5، بيروت: دار العلم للملايين، 2002م، ص 314

[3] أبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص15-18

[4] أبو الريحان البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق إدوارد سخاو، بيروت: دار صادر، 2000م، ص 7–12.

[5] هدى أحمد شوشة، «منهجية البيروني رحمه الله من خلال كتاب تحقيق ما للهند»، مجلة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، مج12، ع52، 2025م، ص 193–228

وقد انعكس هذا التوجه العلمي على طريقته في دراسة الفكر الهندي، إذ حرص على الرجوع إلى المصادر الأصلية ومناقشة القضايا الفلسفية والدينية من منظور أصحابها أنفسهم. ويرى عدد من الباحثين أن هذه السمة تمثل أحد أهم أسباب القيمة العلمية لكتابه عن الهند، لأنه تجاوز الصور النمطية الشائعة عن الشعوب الأخرى وسعى إلى فهمها وفق معاييرها الفكرية الخاصة.

ويشير عبد الرحمن بدوي إلى أن أهمية البيروني لا تكمن في جمعه للمعلومات فحسب، بل في محاولته بناء فهم علمي للحضارة الهندية من داخل منظومتها الفكرية والثقافية، الأمر الذي جعل دراسته واحدة من أبرز الدراسات الحضارية في التراث الإسلامي[1].

ثانياً: كتاب «تحقيق ما للهند» وأهميته العلمية

يُعد كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» من أهم المؤلفات التي تناولت الفكر الهندي في التراث الإسلامي. وقد جمع فيه البيروني معلومات واسعة عن الأديان والمذاهب والعادات والعلوم والفلسفات السائدة في المجتمع الهندي، معتمدًا على المشاهدة المباشرة وعلى دراسة النصوص الأصلية.

وتبرز أهمية هذا الكتاب في أنه يمثل محاولة واعية لفهم الآخر الحضاري بعيدًا عن الجدل العقدي أو الأحكام المسبقة. وقد عبّر البيروني بوضوح عن هذا التوجه عندما قال:

«وليس كتابي هذا كتاب حجاج وجدال، حتى أستعمل فيه إيراد حجج الخصوم ومناقضتهم، وإنما هو حكاية لمقالات الهند كما هي».[2]

ويكشف هذا النص عن وعي منهجي متقدم بأهمية الموضوعية في دراسة الأديان والثقافات المختلفة. فالبيروني لم يسع إلى نقد المعتقدات الهندية أو الدفاع عنها، وإنما حاول عرضها كما يفهمها أصحابها أنفسهم. وقد رأى بعض الباحثين أن هذا المنهج يمثل نموذجًا مبكرًا للدراسات المقارنة للأديان، لأنه يقوم على الوصف والتحليل قبل إصدار الأحكام.[3]

كما يؤكد حسين مجيب المصري أن كتاب البيروني يمثل مصدرًا فريدًا لفهم الفكر الهندوسي في العصور الوسطى، لأنه جمع بين المعرفة اللغوية والاطلاع المباشر على البيئة الثقافية الهندية، وهو ما أضفى على مادته العلمية قدرًا كبيرًا من الدقة والموثوقية.[4]

ثالثاً: منهج البيروني في دراسة الفكر الهندوسي

اعتمد البيروني في دراسة الفكر الهندوسي على مجموعة من الأسس المنهجية التي منحته مكانة متميزة بين علماء الحضارة الإسلامية. ومن أبرز هذه الأسس الاعتماد على المصادر الأصلية، والحرص على فهم المصطلحات الدينية والفلسفية في سياقها الثقافي، وتجنب الأحكام المسبقة أثناء عرض الأفكار والمعتقدات.

وقد ظهر هذا المنهج بوضوح في تناوله للمفاهيم الفلسفية الكبرى في الهندوسية، إذ حاول تفسيرها من خلال ما ورد في النصوص الهندية نفسها، مع السعي إلى تقريب معانيها إلى القارئ المسلم باستخدام مصطلحات مألوفة في الثقافة الإسلامية. وقد ساعده هذا الأسلوب على تقديم صورة أكثر وضوحًا للفكر الهندي، وإن كان ذلك قد أدى أحيانًا إلى تفسير بعض المفاهيم الهندوسية في ضوء الخلفية الفلسفية الإسلامية التي ينتمي إليها.

---

[1] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الهند، ص83.
[2] أبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص7
[3] Wilhelm Halbfass, India and Europe: An Essay in Understanding, SUNY Press, p.62.
[4] حسين مجيب المصري، الهندوسية، ، ص74.

ويرى أحمد شلبي أن قيمة منهج البيروني تتمثل في كونه حاول تقديم عرض علمي للأديان الهندية بعيدًا عن التعصب أو التشويه، الأمر الذي جعله من أوائل الباحثين الذين اقتربوا من مفهوم الدراسة المقارنة للأديان بمعناه العلمي.[1]

ومن هنا يمكن القول إن البيروني أسس نموذجًا مبكرًا للحوار المعرفي بين الحضارات، حيث جمع بين احترام الخصوصية الثقافية للشعوب وبين الرغبة في تفسير أفكارها وتقديمها إلى بيئة ثقافية مختلفة. وقد أسهم هذا المنهج في نقل جانب مهم من التراث الفكري الهندي إلى العالم الإسلامي، كما مهد الطريق أمام الدراسات اللاحقة التي تناولت الفكر الهندوسي من منظور مقارن.

المبحث الثاني: مفهوم البرهمان في قراءة البيروني

يحتل مفهوم البرهمان مكانة مركزية في الفلسفة الهندوسية بوصفه المبدأ المطلق الذي يقوم عليه الوجود، وقد أولى البيروني اهتمامًا خاصًا لهذا المفهوم أثناء عرضه للفكر الديني والفلسفي الهندي. ويعود ذلك إلى إدراكه أن فهم العقائد الهندوسية لا يمكن أن يكتمل دون فهم الأساس الميتافيزيقي الذي تستند إليه، والمتمثل في فكرة الحقيقة المطلقة أو المبدأ الأول الذي تنبثق منه الموجودات كافة[2].

وقد حاول البيروني نقل هذا المفهوم إلى القارئ المسلم بلغة فلسفية مألوفة في البيئة الإسلامية، مع المحافظة قدر الإمكان على المعنى الذي يقصده الفلاسفة الهنود. ومن خلال ذلك قدم واحدة من أقدم المحاولات الإسلامية لفهم البرهمان وتحليله ضمن إطار مقارن يجمع بين الفكر الهندي والفلسفة الإسلامية[3].

المطلب الأول: البرهمان بوصفه المبدأ الأول وأصل الموجودات

عند دراسته للفلسفة الهندية، لاحظ البيروني أن الفلاسفة الهنود ينطلقون من الإيمان بوجود أصل أول للكون تتفرع عنه الموجودات جميعًا. وقد عبّر عن ذلك بقوله:

«ويعتقد حكماؤهم أن للعالم مبدأ أول ليس بجسم ولا عرض، وهو العلة الأولى لجميع الموجودات».[4]

ويكشف هذا النص أن البيروني أدرك الطبيعة الميتافيزيقية للمبدأ الذي تقوم عليه الفلسفة الهندوسية، وأنه لا ينتمي إلى عالم المادة أو الظواهر الحسية، بل يمثل الحقيقة العليا التي يتأسس عليها الوجود كله. ومن الواضح أنه استخدم مصطلح «العلة الأولى» لتقريب المعنى إلى القارئ المسلم، وهو مصطلح ارتبط بالفلسفة الإسلامية والميراث الأرسطي الذي كان شائعًا في عصره.

ويتوافق هذا التصور مع ما ورد في النصوص الأوبنشادية التي تعد المصدر الأساسي للفلسفة الهندوسية. ففي تايتيريا أوبنشاد جاء النص الآتي:

That from which all beings are born, by which they live, and into which they "
enter at death—know that as Brahman."[5]

أي:

«ذلك الذي تنشأ منه جميع الكائنات، وبه تعيش، وإليه تعود بعد الموت، فذلك هو البرهمان.»

---

(1) أحمد شلبي، مقارنة الأديان، ص71.

2 أبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص48

3 عبد الرحمن بدوي، فلسفة الهند، ص83 ؛ Wilhelm, India and Europe, p.75

(4) البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص48

(5) Easwaran, The Upanishads, p.21

ويبين هذا النص أن البرهمان يمثل أصل الوجود ومصدر الحياة وغاية الموجودات جميعًا. ومن هنا تتضح العلاقة بين ما عرضه البيروني وما ورد في النصوص الهندوسية، إذ أدرك أن الفكر الهندوسي يقوم على الإيمان بحقيقة مطلقة تشكل أساس الكون ومصدر نشأته.

وقد أشار سوريندراناث داسغوبتا إلى أن مفهوم البرهمان يمثل المحور الأساسي للفلسفة الهندية، لأنه يفسر وحدة الوجود خلف تعدد الظواهر والكائنات[1]. كما يرى أحمد شلبي أن البرهمان يشكل مركز البناء الفلسفي للهندوسية، باعتباره أصل العالم ومصدر جميع الموجودات.[2]

المطلب الثاني: البرهمان والحقيقة الكونية الواحدة

لم يقتصر اهتمام البيروني على فكرة أصل الكون، بل امتد إلى التصور الهندوسي الذي يرى أن جميع الموجودات ترتبط بحقيقة كونية واحدة. فقد لاحظ أن الفلاسفة الهنود ينظرون إلى العالم بوصفه مترابطًا في جوهره، وأن التعدد الظاهر في الكون لا ينفي وجود وحدة باطنية تجمع بين الكائنات جميعًا.

ويظهر هذا التصور بوضوح في النصوص الأوبنشادية، ولا سيما في العبارة الشهيرة الواردة في تشاندوغيا أوبنشاد:

Tat Tvam Asi.""[3]

أي:

«ذلك أنت.»

وقد أصبحت هذه العبارة من أشهر العبارات الفلسفية في التراث الهندوسي، لأنها تشير إلى وجود صلة عميقة بين الإنسان والحقيقة المطلقة. فالذات الإنسانية، بحسب هذا التصور، ليست منفصلة عن الحقيقة الكونية، بل ترتبط بها ارتباطًا جوهريًا.

ومن خلال عرضه لأفكار الفلاسفة الهنود، أدرك البيروني وجود هذه الرؤية الكونية التي تجعل جميع الموجودات صادرة عن أصل واحد. وقد لاحظ جافين فلود أن فكرة الوحدة الكونية تمثل أحد الأسس الفلسفية الكبرى للهندوسية، وأنها ترتبط ارتباطًا مباشرًا بمفهوم البرهمان.[4]

كما يرى محمد عبد السلام محمد أن هذه الرؤية الفلسفية تعكس محاولة الفكر الهندي تجاوز عالم التعدد للوصول إلى إدراك الوحدة الكامنة خلف ظواهر الكون المختلفة.[5]

المطلب الثالث: حدود تفسير البيروني وأثر خلفيته الفكرية

على الرغم من القيمة العلمية الكبيرة التي تتمتع بها دراسة البيروني للفكر الهندوسي، فإن قراءته لبعض المفاهيم الفلسفية ظلت متأثرة بالسياق الحضاري والفكري الذي ينتمي إليه. فقد كان البيروني ابنًا للثقافة الإسلامية الكلاسيكية، ولذلك لجأ في كثير من الأحيان إلى استخدام مصطلحات مألوفة في الفلسفة الإسلامية لتفسير المفاهيم الهندية.

---

[1] Dasgupta, A History of Indian Philosophy p.436

[2] أحمد شلبي، مقارنة الأديان ، ص71

[3] Radhakrishnan, The Principal Upanishads, p.447.

[4] Flood, An Introduction to Hinduism, p.84.

[5] محمد عبد السلام محمد، تاريخ الفلسفة الهندية ، ص88.

ويظهر ذلك بوضوح في استخدامه لمصطلحات مثل «المبدأ الأول» و«العلة الأولى» عند حديثه عن البرهمان. فهذه المصطلحات ساعدت على تقريب الفكرة إلى القارئ المسلم، لكنها لا تعبر بصورة كاملة عن جميع الأبعاد التي يحملها مفهوم البرهمان في النصوص الهندوسية.

وقد أشار ويلهلم هالبفاس إلى أن ترجمة المفاهيم الفلسفية بين الحضارات المختلفة تثير دائمًا إشكالات تتعلق باختلاف السياقات الثقافية واللغوية، وهو ما يظهر بوضوح في تفسير البيروني لبعض المفاهيم الهندوسية.[1]

ومع ذلك فإن هذا التأثر لا يقلل من القيمة العلمية لعمله، بل يؤكد طبيعة الجهد الذي بذله لفهم ثقافة تختلف جذريًا عن بيئته الفكرية. ولذلك يرى عدد من الباحثين أن البيروني يمثل أحد أوائل رواد الدراسات المقارنة للأديان والحضارات، لأنه سعى إلى فهم الفكر الهندوسي من داخله قبل الحكم عليه أو نقده.[2]

ومن هنا يمكن القول إن قراءة البيروني لمفهوم البرهمان تمثل مرحلة مهمة في تاريخ التفاعل الفكري بين الحضارات، لأنها جمعت بين محاولة الفهم الموضوعي للفلسفة الهندوسية وبين توظيف الأدوات المفاهيمية التي كانت متاحة في الفكر الإسلامي الوسيط. وقد أسهمت هذه القراءة في نقل جانب مهم من التراث الفلسفي الهندي إلى العالم الإسلامي، كما فتحت المجال أمام قراءات لاحقة أكثر تخصصًا وعمقًا في دراسة الفكر الهندوسي.

المبحث الثالث

الأبعاد الفلسفية والمنهجية لتفسير البيروني لمفهوم البرهمان

لا تقتصر أهمية قراءة البيروني لمفهوم البرهمان على كونه نقل هذا المفهوم إلى البيئة الإسلامية، بل تمتد إلى الأبعاد الفلسفية والمنهجية التي انطوت عليها محاولته لفهم الفكر الهندوسي وتفسيره. فقد تعامل البيروني مع البرهمان بوصفه قضية فلسفية تتعلق بأصل الوجود وطبيعة الحقيقة المطلقة، كما سعى إلى تقديم تفسير يساعد القارئ المسلم على استيعاب هذا المفهوم ضمن أفقه الثقافي والمعرفي. ومن هنا تبرز أهمية دراسة الجوانب الفلسفية والمنهجية التي شكلت أساس تفسيره للبرهمان.

المطلب الأول: البرهمان وأصل الكون في تفسير البيروني

يُظهر عرض البيروني للفلسفة الهندية أنه أدرك المكانة المركزية التي يحتلها البرهمان في تفسير نشأة الكون وأصل الموجودات. فالفلاسفة الهنود، بحسب ما نقله، ينطلقون من الإيمان بوجود حقيقة مطلقة تشكل مصدر العالم وأساس انتظامه، وهي حقيقة تتجاوز حدود الزمان والمكان ولا تخضع للتغير الذي يطرأ على الموجودات المادية.

وقد حاول البيروني تفسير هذا التصور من خلال مفاهيم فلسفية قريبة من مفهوم العلة الأولى في الفلسفة الإسلامية، إذ رأى أن البرهمان يمثل المبدأ الذي تصدر عنه الموجودات كافة دون أن يفقد وحدته أو كماله. ويبدو هذا الفهم قريبًا مما ورد في نصوص الأوبنشاد التي تصف البرهمان بأنه الأصل الذي تنبثق منه الكائنات جميعًا وتعود إليه في نهاية المطاف.[3]

---

[1] Wilhelm, India and Europe, p.75.

[2] عبد الرحمن بدوي، فلسفة الهند ، ص83.

[3] Easwaran, The Upanishads, 2007, p. 21.

وتشير نصوص موندكا أوبنشاد إلى هذا المعنى عندما تشبه صدور الموجودات عن البرهمان بخروج الشرر من النار المشتعلة، في إشارة إلى أن الكثرة الظاهرة في الكون تعود في حقيقتها إلى أصل واحد[1] وقد أدرك البيروني هذه الرؤية الفلسفية، فاعتبر أن الحديث عن البرهمان لا يتعلق بإله شخصي محدود الصفات، وإنما بمبدأ كوني شامل يمثل أساس الوجود كله.

ويرى داسغوبتا أن هذه الفكرة تشكل أحد أهم الأسس الميتافيزيقية للفلسفة الهندية، لأنها تفسر العلاقة بين الوحدة والكثرة، وبين المطلق والعالم المتغير. [2]كما يؤكد حسين مجيب المصري أن مفهوم البرهمان يمثل ذروة التطور الفلسفي للفكر الهندوسي، حيث أصبح الإطار الذي تُفسَّر من خلاله قضايا الخلق والوجود والمعرفة.[3]

المطلب الثاني: أثر الخلفية الإسلامية في تفسير البيروني

على الرغم من حرص البيروني على نقل الفكر الهندي كما يفهمه أصحابه، فإن تفسيره للمفاهيم الفلسفية الهندوسية لم يكن منفصلًا عن البيئة الفكرية التي نشأ فيها. فقد كان ينتمي إلى الحضارة الإسلامية التي ازدهرت فيها الفلسفة والكلام، وتأثرت بالميراث اليوناني، الأمر الذي انعكس على طريقته في فهم بعض القضايا الميتافيزيقية[4].

ويظهر هذا التأثير في استخدامه لمصطلحات مثل «العلة الأولى» و«المبدأ الأول» و«سبب الموجودات»، وهي تعبيرات تنتمي إلى الحقل المفاهيمي للفلسفة الإسلامية أكثر من انتمائها إلى النصوص الهندوسية الأصلية. وقد لجأ البيروني إلى هذه المصطلحات بهدف تقريب المعنى إلى القارئ المسلم، إلا أن هذا الأسلوب أدى أحيانًا إلى تفسير البرهمان في ضوء تصورات فلسفية تختلف جزئيًا عن الدلالات التي يحملها في التراث الهندوسي[5].

ويرى ويليم هالبفاس أن التفاعل بين الحضارات يفرض على الباحث استخدام أدوات مفهومية مألوفة لديه لفهم المفاهيم الأجنبية، وهو ما يجعل عملية الترجمة الفكرية عملية معقدة لا تخلو من التأويل وإعادة الصياغة.[6] وينطبق هذا الأمر على قراءة البيروني للبرهمان، إذ حاول فهم المفهوم الهندوسي من خلال الخلفية الفلسفية التي كانت سائدة في عصره.

ومع ذلك فإن هذا التأثر لا يعني فقدان الموضوعية أو الدقة العلمية، بل يعكس الجهد الذي بذله البيروني في سبيل إيجاد لغة مشتركة تسمح بنقل الأفكار بين حضارتين مختلفتين. ولهذا السبب يعده كثير من الباحثين رائدًا في مجال الدراسات الحضارية المقارنة، لأنه جمع بين الأمانة العلمية والسعي إلى الفهم العقلي للمعتقدات الأجنبية.

وقد أشار عبد الرحمن بدوي إلى أن أهمية البيروني تكمن في قدرته على تجاوز الأحكام المسبقة والسعي إلى فهم الفكر الهندي ضمن سياقه الخاص، وهو ما منحه مكانة متميزة في تاريخ الفكر الإنساني.[7]

المطلب الثالث: قيمة قراءة البيروني في الدراسات المقارنة للأديان

---

(1) Radhakrishnan, The Principal Upanishads p. 682.
(2) Dasgupta, A History of Indian Philosophy, p. 440.
(3) حسين مجيب المصري، الهندوسية ، ص78.
4() عبد الرحمن بدوي، فلسفة الهند، ص45
(5) محمد عبد السلام محمد، تاريخ الفلسفة الهندية ، ص88.
(6) Wilhelm, India and Europe, p. 75.
(7) عبد الرحمن بدوي، فلسفة الهند، ص83

تمثل دراسة البيروني للفلسفة الهندية نموذجًا مبكرًا لما يعرف اليوم بالدراسات المقارنة للأديان. فقد أدرك أن فهم الأديان لا يتحقق من خلال الجدل أو النقد المباشر، بل من خلال دراسة النصوص والمعتقدات ضمن سياقها التاريخي والثقافي.

وتتجلى قيمة هذه القراءة في أنها قدمت صورة واسعة عن الفكر الهندوسي في فترة مبكرة من التاريخ، وساعدت على نقل كثير من المفاهيم الفلسفية الهندية إلى البيئة الإسلامية. كما أتاحت للباحثين اللاحقين الاطلاع على تصورات الهنود حول قضايا الوجود والروح والحقيقة المطلقة من خلال مصدر يتمتع بدرجة عالية من الموثوقية.

وقد أكد أحمد شلبي أن دراسة البيروني تمثل من أهم المحاولات العلمية لفهم الديانات الشرقية، لأنها قامت على المعرفة المباشرة والرجوع إلى المصادر الأصلية بعيدًا عن التشويه أو التحيز[1]. كما يرى عدد من الباحثين المعاصرين أن كتاب «تحقيق ما للهند» يشكل نقطة تحول مهمة في تاريخ دراسة الأديان المقارنة، لأنه سبق كثيرًا من المناهج الحديثة التي دعت إلى فهم الظواهر الدينية من داخلها.

ومن جهة أخرى، تكشف قراءة البيروني لمفهوم البرهمان عن إمكانية الحوار الفكري بين الحضارات المختلفة، إذ استطاع عالم مسلم في القرن الخامس الهجري أن يقدم تفسيرًا لمفهوم فلسفي نشأ في بيئة دينية وثقافية مغايرة لبيئته. وتبرز هذه الحقيقة أهمية الدراسات المقارنة في بناء جسور التواصل بين الثقافات، وفي تعميق فهم الإنسان للتراث الفكري المتنوع الذي أنتجته الحضارات المختلفة عبر التاريخ.

ومن هنا يمكن القول إن قيمة دراسة البيروني لا تكمن في المعلومات التي نقلها فحسب، وإنما في المنهج الذي اعتمده لفهم الآخر الحضاري. وقد جعل هذا المنهج من كتابه مرجعًا أساسيًا لكل دراسة تسعى إلى فهم الفكر الهندوسي أو تحليل تطور الدراسات المقارنة للأديان في التراث الإسلامي.

الفصل الثالث: تفسير مفهوم البرهمان عند هوستن سميث في دراسات الأديان الحديثة

المبحث الأول: المنهج الظاهراتي عند هوستن سميث وأثره في فهم البرهمان

1. أسس المنهج الظاهراتي في دراسة الأديان

ينتمي هوستن سميث إلى الاتجاه الذي يعتمد المنهج الظاهراتي (Phenomenological Approach) في دراسة الأديان، وهو منهج يسعى إلى فهم التجربة الدينية من داخلها دون إصدار أحكام معيارية على العقائد الدينية أو مقارنتها بمعايير خارجية[2]. وقد نشأ هذا المنهج في سياق الفلسفة الأوروبية في القرن التاسع عشر، وتبلور بشكل واضح في أعمال عدد من الباحثين أمثال رودولف أوتو الذي قدّم في كتابه القدسي تصورًا للتجربة الدينية يعتمد على مفهوم الشعور بالقوة الإلهية الفائقة (numinous)، كما تأثر سميث بأعمال ميرتشا إليادة الذي طوّر المنهج الظاهراتي في دراسة الأديان وقدم تحليلًا معمقًا للرمزية الدينية والطقوس[3].

ويؤكد سميث أن دراسة الأديان يجب أن تنطلق من فهم الطريقة التي يرى بها أتباع كل دين العالم والوجود، لأن الدين يمثل بالنسبة لهم إطارًا يفسر معنى الحياة والكون، ويمنحهم إحساسًا بالهدف والمعنى في الوجود[4]. وهو في هذا يتبع نهجًا يقوم على التعاطف الفكري (Intellectual Empathy)، حيث

---

(1) أحمد شلبي، مقارنة الأديان ، ص74.

(2) Huston, The World's Religions, p.48.

(3) Eliade, Mircea, The Sacred and the Profane: The Nature of Religion, Harcourt, Brace & World, New York, 1959; Otto, Rudolf, The Idea of the Holy, Oxford University Press, 1923.

(4) Smith, *The World's Religions*, p.48.

يسعى إلى فهم التجربة الدينية كما يعيشها أتباعها، بدلًا من تحليلها من منظور خارجي قد يفقد جزءًا من عمقها ومعناها[1].

وقد عبّر سميث عن هذا الموقف في مقدمة كتابه The World's Religions بقوله إن دراسته للأديان لا تهدف إلى المقارنة بينها من حيث الصواب والخطأ، بل إلى فهم الطريقة التي يرى بها كل دين العالم والوجود، لأن كل دين يمثل إجابة حقيقية على الأسئلة الأساسية التي تواجه الإنسان[2].

ومن المهم الإشارة إلى أن سميث لم يكن يتبنى موقفًا نسبيًا يلغي الفروقات بين الأديان، بل كان يسعى إلى فهم كل دين في سياقه الخاص، مع الاعتراف بأن الأديان الكبرى تمثل محاولات جادة للتعامل مع الحقيقة الدينية، وأن لكل منها إسهامًا خاصًا في فهم الوجود والعلاقة بين الإنسان والمطلق[3].

2. تطبيق سميث للمنهج الظاهراتي على الفلسفة الهندوسية

طبّق سميث المنهج الظاهراتي على دراسة الفلسفة الهندوسية من خلال التركيز على النصوص الأساسية التي تشكّل المرجعية الروحية والفلسفية للهندوسية، ولا سيما الأوبنشاد وبهاغافاد غيتا[4]. وقد سعى إلى فهم هذه النصوص كما فهمها المؤمنون الهندوس عبر التاريخ، دون فرض تفسيرات حديثة قد تشوّه معناها الأصلي.

وأشار سميث إلى أن الهندوسية تقدم رؤية ميتافيزيقية عميقة للكون تقوم على فكرة وجود حقيقة مطلقة تقف وراء جميع مظاهر الوجود، ويقول في هذا السياق:

At the heart of Hindu thought lies the idea of Brahman, the ultimate reality that " underlies the universe."[5]

أي:

"في قلب الفكر الهندوسي تكمن فكرة البرهمان، الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الكون."

ويشير هذا النص إلى أن سميث يرى أن مفهوم البرهمان يمثل الأساس الذي يقوم عليه البناء الفلسفي للهندوسية، وأن فهم هذا المفهوم يُعد مفتاحًا لفهم الرؤية الكونية الهندوسية بأسرها[6].

كما أولى سميث أهمية خاصة للعلاقة بين البعد الفلسفي والبعد العملي في الهندوسية، إذ رأى أن المفاهيم الميتافيزيقية مثل البرهمان ليست مجرد أفكار نظرية، بل حقائق يختبرها المؤمنون من خلال الممارسات الروحية والتأمل[7].

3. إشكاليات المنهج الظاهراتي في قراءة سميث

على الرغم من أهمية المنهج الظاهراتي الذي اعتمده سميث في دراسة الأديان، فقد واجه هذا المنهج عددًا من الانتقادات، ومن أبرزها ما يتعلق بمشكلة التحيز الأنطولوجي (Ontological Bias)، إذ يُتهم المنهج

---

(1) Smith, Huston, Forgotten Truth: The Primordial Tradition, Harper & Row, New York, 1976, p.22.
(2) Smith, The World's Religions, Introduction.p58
(3) Smith, Huston, "Is There a Perennial Philosophy?", *Journal of Religion*, Vol.75, No.2, 1995, pp.151-163.
(4) Smith, The World's Religions, pp.52-58.
(5) Ibid, p.52.
(6) Sharma, Classical Hindu Thought, p.88.
(7) Flood, , An Introduction to Hinduism, p.84

الظاهراتي أحيانًا بافتراض وجود مسبق لماهية التجربة الدينية، مما قد يحدّ من قدرته على فهم الظواهر الدينية في سياقها التاريخي والثقافي الكامل[1].

كما أشار بعض النقاد إلى أن سميث كان يميل أحيانًا إلى تقديم صورة إيجابية للأديان الشرقية، ولا سيما الهندوسية والبوذية، مقارنة ببعض الأديان الأخرى[2]. ومع ذلك، فقد أوضح سميث في عدد من كتاباته أنه لم يكن يسعى إلى تفضيل دين على آخر، بل إلى تصحيح الصور النمطية السائدة عن الأديان الشرقية في الفكر الغربي[3].

ومن الانتقادات الأخرى التي وُجهت إليه مشكلة التعميم، حيث رأى بعض الباحثين أن سميث قدّم أحيانًا صورة مبسطة للهندوسية، دون التركيز الكافي على التعدد والتنوع داخلها[4]. إلا أن سميث دافع عن منهجه مؤكدًا أن هدفه كان تقديم صورة عامة تساعد القارئ غير المتخصص على فهم الأسس المشتركة للتقاليد الدينية الكبرى[5].

المبحث الثاني: البرهمان بوصفه الحقيقة المطلقة في تفسير هوستن سميث

1. البرهمان في إطار الرؤية الكونية الهندوسية

يرى هوستن سميث أن البرهمان يمثل الحقيقة المطلقة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان، وهو المبدأ الكوني الذي يقف وراء جميع مظاهر الوجود[6]. وقد انطلق في تفسيره لهذا المفهوم من النصوص الفلسفية الهندوسية، ولا سيما الأوبنشاد التي تُعد المرجع الأساسي لفكرة البرهمان في الفكر الهندوسي[7].

وقد ورد في تايتيريا أوبنشاد النص الآتي:

That from which all beings are born, by which they live, and into which they “ return—that is Brahman.”[8]

أي: "ذلك الذي تنشأ منه جميع الكائنات، وبه تعيش، وإليه تعود، فذلك هو البرهمان."

ويرى سميث أن هذا النص يُعبّر بصورة واضحة عن التصور الهندوسي للحقيقة المطلقة، إذ يربط البرهمان بأصل الوجود واستمراره وعودته النهائية[9]. كما يشير إلى أن الكون في الفكر الهندوسي ليس منفصلًا عن البرهمان، بل يرتبط به ارتباطًا وجوديًا عميقًا، وهو ما يعبّر عنه بعض الباحثين بفكرة وحدة الوجود أو وحدة الكينونة.

---

(1) Smart, Ninian, The Science of Religion and the Sociology of Knowledge, Princeton University Press, 1973, p.41
(2) Smart, Ninian, “The Phenomenology of Religion,” in The Encyclopedia of Religion, Vol.11, Macmillan, 1995, pp.272-278.
(3) Smith, Huston, “Why Religion Matters,” The Tibet Journal, Vol.15, No.3, 1990, pp.5-15.
(4) Nakamura, Hajime, A History of Early Vedānta Philosophy, Motilal Banarsidass, Delhi, 1989, Introduction.
(5) Smith, The World’s Religions, Conclusion.p60.
(6) Huston, The World’s Religions, p.52.
(7) Dasgupta, *A History of Indian Philosophy*, p.436.
(8) Easwaran*The Upanishads*, p.21.
(9) Smith, *The World’s Religions*, p.53.

ولا يقتصر مفهوم البرهمان عند سميث على الجانب الفلسفي النظري، بل يتجاوز ذلك إلى البعد الروحي والتجريبي، حيث يرى أن المؤمن الهندوسي لا يتعامل مع البرهمان بوصفه فكرة عقلية مجردة، وإنما باعتباره حقيقة روحية يمكن اختبارها من خلال التأمل والممارسة الدينية[1].

2. البرهمان في الأوبنشاد الكبرى

قدّم سميث تحليلًا موسعًا للنصوص الأوبنشادية التي تناولت مفهوم البرهمان، مستفيدًا من الترجمات الإنجليزية للنصوص السنسكريتية ومن الدراسات الفلسفية الحديثة المتعلقة بالفكر الهندوسي[2]. ومن أبرز النصوص التي استند إليها ما ورد في تشاندوغيا أوبنشاد:

"Tat Tvam Asi."[3]

أي: "ذلك أنت."

ويفسّر سميث هذا النص على أنه تعبير عن العلاقة بين الذات الإنسانية والحقيقة الكونية، حيث إن الإنسان في جوهره ليس منفصلًا عن البرهمان، بل يمثل امتدادًا له[4]. وقد اعتبر عدد من الباحثين أن هذه الفكرة تمثل أحد أهم الأسس الفلسفية للهندوسية، لأنها تقوم على تصور يرى أن الكون والإنسان يرتبطان بوحدة روحية شاملة[5].

كما استند سميث إلى ما ورد في بريهادأرانياكا أوبنشاد:

"This great unborn Self, undecaying, undying, immortal, fearless—is Brahman."[6]

أي: "هذه الذات العظيمة التي لم تولد، والتي لا تفنى ولا تموت، الخالدة التي لا تخاف، هي البرهمان."

ويكشف هذا النص عن أن البرهمان لا يُقدَّم في الفكر الهندوسي بوصفه مبدأً كونيًا مجردًا فقط، بل بوصفه حقيقة حية تتصف بالأزلية والخلود[7].

وفي كينا أوبنشاد ورد النص الآتي:

"That which cannot be thought by the mind, but by which the mind thinks—that is Brahman."[8]13

أي: "ذلك الذي لا يمكن للعقل أن يدركه، لكنه هو الذي يجعل العقل قادرًا على التفكير، فذلك هو البرهمان."

ويرى سميث أن هذا النص يعكس وعيًا فلسفيًا بحدود العقل البشري، وأن معرفة البرهمان لا تتحقق من خلال التفكير العقلي وحده، بل من خلال التجربة الروحية العميقة والتأمل[9].

---

(1) Floo, *An Introduction to Hinduism*, p.84.
(2) Smith, *The World's Religions*, pp.52-58.
(3) Radhakrishnan, *The Principal Upanishads*, p.447.
(4) Smith, The World's Religions, p.55.
(5) Sharm, *Classical Hindu Thought: An Introduction*, p.88.
(6) Radhakrishnan, *The Principal Upanishads*, p.168
(7) Dasgupta, *A History of Indian Philosophy*, Vol.1, p.470
(8) Easwaran, *The Upanishads*, p.134.
(9) Smith, *The World's Religions*, p.57.

3. البرهمان والخلاص الروحي

اهتم سميث كذلك بمفهوم البرهمان في بهاغافاد غيتا، التي تُعد من أهم النصوص الدينية في الهندوسية، حيث رأى أن هذا النص يربط بين إدراك البرهمان وفكرة الخلاص الروحي (Moksha)[1].

وقد ورد في بهاغافاد غيتا:

"Brahman is the imperishable reality." [2]

أي: "البرهمان هو الحقيقة الأبدية التي لا تفنى."

ويشير هذا النص إلى أن البرهمان يمثل الحقيقة الثابتة التي تقف وراء جميع التغيرات التي يشهدها العالم المادي، وأن إدراك هذه الحقيقة هو الطريق إلى التحرر من دورة الولادة والموت (Samsara)[3].

ويربط سميث بين مفهوم البرهمان وفكرة الخلاص في الفكر الهندوسي، حيث يرى أن الإنسان يعيش في حالة من الارتباط بالعالم المادي، وأن التحرر الحقيقي يتحقق من خلال إدراك الوحدة مع الحقيقة المطلقة[4]. ولذلك فإن المعرفة في الهندوسية لا تُفهم بوصفها عملية عقلية فحسب، بل بوصفها تجربة تحولية تغيّر الإنسان من الداخل وتحرره من الشعور بالانفصال عن الكون[5].

كما أجرى سميث عددًا من المقارنات بين البرهمان والمفاهيم المشابهة في الأديان والفلسفات الأخرى، فشبّه البرهمان بمفهوم "الداو" (Dao) في الفلسفة الصينية، وكذلك بمفهوم "الواحد" (The One) في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة[6]. إلا أنه أكد أن البرهمان يتميز بكونه قابلًا للإدراك من خلال التجربة الروحية المباشرة، وهو ما يمنحه طابعًا خاصًا في الفكر الهندوسي[7].

المبحث الثالث: القيمة المعرفية والنقدية لتفسير هوستن سميث لمفهوم البرهمان

1. إسهام سميث في تعريف الغرب بالفلسفة الهندوسية

تكمن أهمية تفسير هوستن سميث لمفهوم البرهمان في أنه قدّم قراءة حديثة للفلسفة الهندوسية ضمن إطار الدراسات المقارنة للأديان، وأسهم في تعريف القارئ الغربي بالمفاهيم الأساسية للهندوسية في فترة كانت فيها المعرفة الغربية بهذه الديانة محدودة وغير دقيقة[8].

وقد حاول سميث تقديم المفاهيم الهندوسية بلغة أكاديمية واضحة، مع المحافظة على بعدها الروحي والفلسفي، الأمر الذي ساعد القارئ غير المتخصص على فهم الأفكار الأساسية للفكر الهندوسي[9]. كما ربط بين المفاهيم الهندوسية والمفاهيم المشابهة لها في التقاليد الدينية والفلسفية الأخرى، مما جعلها أكثر قربًا إلى العقل الغربي[10]

---

(1) Ibid, p.58.
(2) Easwaran, Eknath, *The Bhagavad Gita*, Nilgiri Press, California, 2007, p.66.
(3) Flood, *An Introduction to Hinduism*, p.96
(4) Smith, *The World's Religions*, p.60.
(5) Zimmer, Heinrich, Philosophies of India. Princeton: Princeton University Press, 1951. p.91.
(6) Wilhelm, *India and Europe*, p.82
(7) Smith, *The World's Religions*, p.61.
(8) Ibid, pp.41-45.
(9) Sharma, *Classical Hindu Thought*, p.88.
(10) Wilhelm, *India and Europe* p.82.

ورأى عدد من الباحثين أن سميث نجح في تجاوز الصور النمطية السلبية التي كانت سائدة عن الهندوسية في بعض الأدبيات الغربية، حيث ركّز على الأبعاد الروحية والميتافيزيقية لهذه الديانة بدلًا من الاقتصار على الجوانب الطقسية أو الاجتماعية[1].

كما تميز أسلوبه بالجمع بين الدقة الأكاديمية والبساطة في العرض، وهو ما ساعد على انتشار كتبه في الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والدينية، وجعل كتابه The World's Religions من أكثر الكتب استخدامًا في تدريس الأديان المقارنة[2].

2. نقد تفسير سميث وحدود المنهج الظاهراتي

على الرغم من الإسهامات المهمة التي قدّمها سميث في دراسة الأديان، فقد تعرضت قراءاته لعدد من الانتقادات، خاصة فيما يتعلق بحدود المنهج الظاهراتي الذي اعتمده في تفسير الأديان[3].

فقد أشار بعض الباحثين إلى أن هذا المنهج يميل أحيانًا إلى تقديم صورة مثالية للأديان، والتركيز على أبعادها الروحية والفلسفية مع إهمال بعض الجوانب الاجتماعية أو التاريخية المرتبطة بها[4]. وفي حالة الهندوسية، رأى بعض النقاد أن سميث ركّز بصورة كبيرة على النصوص الأوبنشادية والفلسفية، دون التوقف بشكل كافٍ عند قضايا مثل نظام الطبقات الاجتماعية (الكاست) أو التعدد الكبير داخل التقاليد الهندوسية[5].

كما وُجّهت إليه انتقادات تتعلق باعتماده الواسع على الترجمات الإنجليزية للنصوص السنسكريتية، حيث رأى بعض الباحثين أن هذه الترجمات قد لا تنقل دائمًا المعاني الأصلية الدقيقة للمفاهيم الفلسفية الهندوسية[6]. وقد أدى ذلك أحيانًا إلى تبسيط بعض المفاهيم المعقدة أو تقديمها بطريقة أقرب إلى الفهم الغربي الحديث[7].

ومن الانتقادات الأخرى أن سميث قدّم أحيانًا صورة متجانسة للهندوسية، رغم أن هذه الديانة تضم مدارس فلسفية وممارسات دينية متنوعة ومتعددة[8]. ومع ذلك، فقد دافع سميث عن منهجه موضحًا أن هدفه لم يكن تقديم دراسة تفصيلية لكل جوانب الهندوسية، بل بناء مدخل عام يساعد القارئ على فهم أسسها الفكرية والروحية[9].

3. أثر سميث في الدراسات المعاصرة للأديان

استمر تأثير هوستن سميث في حقل دراسات الأديان المعاصرة، حيث تأثر عدد كبير من الباحثين بأسلوبه في دراسة الأديان وتقديمها للقارئ الغربي[10]. وقد ساعدت كتاباته على تعزيز فكرة الفهم العابر للحضارات، أي إمكانية فهم التقاليد الدينية المختلفة خارج حدود الثقافة التي ينتمي إليها الباحث[11].

---

(1) Flood, An Introduction to Hinduism, p.22.
(2) Smith, *The World's Religions*, Introduction.
(3) Smart, *The Science of Religion and the Sociology of Knowledge*, p.41.
(4) Smart , "The Phenomenology of Religion," pp.272-278.
(5) Nakamura, *A History of Early Vedānta Philosophy*, Introduction.p34
(6) Radhakrishnan, *Indian Philosophy*, p.55.
(7) Dasgupta, A History of Indian Philosophy, p.470
(8) Flood, *An Introduction to Hinduism*, p.35.
(9) Huston, *The World's Religions*, Conclusion
(10) Hick, John, *An Interpretation of Religion*, Yale University Press, 1989, p.240.
(11) Wilhelm, *India and Europe*, p.91

كما أسهم سميث في دعم الحوار بين الأديان من خلال تركيزه على القواسم المشتركة بين التجارب الدينية الإنسانية، وإبرازه للأبعاد الروحية المشتركة بين التقاليد الكبرى[1]. وقد تأثر به عدد من الباحثين في الفلسفة والدراسات المقارنة للأديان، ومن أبرزهم جون هيك الذي طوّر رؤية فلسفية تقوم على فكرة تعدد الاستجابات البشرية للحقيقة المطلقة[2].

ومن جهة أخرى، أشارت الدراسات المعاصرة إلى أن قراءة سميث للأديان، رغم أهميتها، تعكس أيضًا السياق الفكري الذي نشأ فيه، وهو السياق الذي كان يميل إلى التركيز على البعد الروحي للأديان أكثر من الأبعاد الاجتماعية والسياسية[3]. ومع ذلك، فإن هذا لا يقلل من القيمة العلمية لإسهاماته، بل يوضح ضرورة قراءة أعماله ضمن إطارها التاريخي والمنهجي.

وخلاصة القول، فإن تفسير هوستن سميث لمفهوم البرهمان يمثل إسهامًا مهمًا في حقل الدراسات المقارنة للأديان، لأنه ساعد على تقديم فهم واضح ومبسط للفلسفة الهندوسية، وأسهم في بناء جسور فكرية بين الثقافات والتقاليد الدينية المختلفة[4].

الفصل الرابع: إعادة قراءة مفهوم البرهمان بين البيروني وهوستن سميث: مقاربة تحليلية متعددة الأبعاد

المبحث الأول: الأبعاد المنهجية والفلسفية في تفسير البرهمان عند البيروني وهوستن سميث

1. إشكالية تفسير مفهوم البرهمان

يمثل مفهوم البرهمان أحد أكثر المفاهيم تعقيدًا في الفلسفة الهندوسية، بسبب طبيعته الميتافيزيقية وتشعب دلالاته الفلسفية والروحية[5]. وقد واجه كل من البيروني وهوستن سميث صعوبة في نقل هذا المفهوم إلى بيئات فكرية مختلفة، الأمر الذي انعكس على طبيعة المصطلحات التي استخدمها كل منهما في تفسيره.

فقد حاول البيروني تفسير البرهمان من خلال مفاهيم فلسفية كانت مألوفة في البيئة الإسلامية، فوصفه أحيانًا بأنه "المبدأ الأول" أو "العلة الأولى"[6]. ويكشف هذا التفسير عن محاولة تقريب المفهوم الهندوسي إلى العقل الإسلامي باستخدام المصطلحات الفلسفية المتداولة في الفكر الإسلامي الوسيط.

أما هوستن سميث فقد استخدم تعبيرات مثل "الحقيقة المطلقة" (Ultimate Reality) أو "المطلق" (Absolute) لوصف البرهمان[7]. وقد ساعدت هذه المصطلحات في تقديم المفهوم بصورة أقرب إلى اللغة الفلسفية الحديثة، إلا أنها لا تعبّر بصورة كاملة عن جميع الأبعاد الروحية والميتافيزيقية التي يحملها مفهوم البرهمان في سياقه الهندوسي الأصلي[8].

ومن هنا يتضح أن ترجمة مفهوم البرهمان لا تمثل مجرد نقل لغوي، بل هي عملية تفسير فلسفي تتأثر بخلفية الباحث والسياق الحضاري الذي ينتمي إليه[9].

2. البعد النصي والفلسفي في التفسيرين

---

(1) Huston, "Why Religion Matters,", pp.5-15.
(2) Hick, John, God Has Many Names, Westminster Press, 1980, p.53.
(3) Smart, The Science of Religion and the Sociology of Knowledge, p.57.
(4) Smith, The World's Religions, pp.60-61.
(5) Dasgupta, *A History of Indian Philosophy*, p.436
(6) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص48.
(7) Wilhelm, *India and Europe:* p.62
(8) Huston, *The World's Religions*, p.52
(9) Sharma, *Classical Hindu Thought* p.88

اعتمد كل من البيروني وسميث على النصوص الهندوسية بوصفها المصدر الأساسي لفهم البرهمان، إلا أن طبيعة التعامل مع هذه النصوص اختلفت بينهما تبعًا لاختلاف المنهج والسياق الحضاري[1].

فقد اعتمد البيروني بصورة أساسية على ما نقله من كتب الهنود، إضافة إلى ما تلقاه من علماء الهند خلال إقامته بينهم[2]، بينما اعتمد سميث بصورة مباشرة على النصوص الفلسفية الهندوسية، ولا سيما الأوبنشاد وبهاغافاد غيتا، التي تُعد من أهم النصوص المؤسسة للفكر الهندوسي[3].

ومن أبرز النصوص التي استند إليها التفسيران ما ورد في تايتيريا أوبنشاد:

That from which all beings are born, by which they live, and into which they return—that is Brahman."[4]

أي: "ذلك الذي تنشأ منه جميع الكائنات، وبه تعيش، وإليه تعود، فذلك هو البرهمان."

ويكشف هذا النص عن أن البرهمان يمثل أصل الوجود ومصدر جميع الموجودات في الفكر الهندوسي[5]. وقد حاول البيروني تفسير هذا المفهوم ضمن إطار الفلسفة العقلية المعروفة في عصره، بينما ركّز سميث على البعد الروحي والميتافيزيقي للنص، ورأى أن البرهمان يمثل الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الكون[6].

كما يظهر الاختلاف بين التفسيرين في طبيعة القراءة الفلسفية للمفهوم؛ فالبيروني تعامل مع البرهمان بوصفه مفهومًا يمكن شرحه من خلال أدوات الفلسفة الإسلامية، في حين رأى سميث أن هذا المفهوم لا يمكن فهمه بصورة كاملة إلا من خلال التجربة الروحية التي تعبّر عنها النصوص الهندوسية[7].

3. البعد الحضاري والمنهجي في المقارنة

يعكس تفسير كل من البيروني وسميث لمفهوم البرهمان السياق الحضاري والفكري الذي ظهرت فيه دراستهما[8]. فقد عاش البيروني في إطار الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، حيث كان الاهتمام بدراسة الثقافات الأخرى مرتبطًا بالتفاعل الحضاري والعلمي بين المسلمين وغيرهم من الأمم[9].

وقد سعى من خلال كتابه تحقيق ما للهند إلى تقديم وصف علمي لمعتقدات الهنود وفلسفاتهم، مع الحرص على نقل أفكارهم بصورة قريبة من حقيقتها الأصلية[10]. ولذلك يُعدّ البيروني من أوائل الباحثين الذين حاولوا دراسة الأديان والثقافات الأخرى بمنهج وصفي تحليلي بعيد عن الجدل الديني المباشر[11].

أما هوستن سميث فقد كتب في سياق أكاديمي حديث تشكّل ضمن حقل الدراسات المقارنة للأديان، وهو حقل يعتمد على المناهج الظاهراتية والأنثروبولوجية في فهم الظواهر الدينية[1]. ولذلك ركّز على فهم التجربة الدينية من داخلها، ورأى أن البرهمان يمثل التعبير الأبرز عن الرؤية الكونية للهندوسية[2].

---

(1) Flood, An Introduction to Hinduism, p.84.

(2) البيروني، *تحقيق ما للهند*، ص7.

(3) Huston, *The World's Religions*, pp.52-58.
(4) Easwaran, *The Upanishads*, p.21.
(5) Zimmer, *Philosophies of India*, p.73.
(6) Huston, *The World's Religions*, p.53
(7) Radhakrishnan, *Indian Philosophy*, , p.55.
(8) Wilhelm, *India and Europe*, p.82

(9) البيروني، *تحقيق ما للهند*، ص10
(10) المصدر نفسه، ص15.

(11) Smart, "The Phenomenology of Religion, pp.272-278.

ويكشف هذا الاختلاف المنهجي عن أن تفسير المفاهيم الدينية لا ينفصل عن السياق الثقافي والمعرفي للباحث، بل يتأثر بالأدوات الفكرية والمنهجية التي يعتمدها في فهم النصوص والتجارب الدينية[3].

المبحث الثاني: القيمة المعرفية للدراسة المقارنة بين البيروني وهوستن سميث

1. القيمة المعرفية لتفسير البرهمان عند البيروني وسميث

تكشف القراءة المقارنة لتفسير مفهوم البرهمان عند كل من البيروني وهوستن سميث عن أهمية الدراسات المقارنة للأديان في فهم التقاليد الفكرية المختلفة[4]. فعلى الرغم من الاختلاف الزمني والحضاري بين الباحثين، فإن كليهما سعى إلى تقديم فهم معمق للفلسفة الهندوسية ومحاولة تفسير مفاهيمها الأساسية ضمن الأطر الفكرية التي ينتمي إليها[5].

ويمثل البيروني نموذجًا مبكرًا للدراسة الحضارية المقارنة، إذ حاول نقل أفكار الهنود كما هي، مع الحرص على تفسيرها للقارئ المسلم بلغة علمية وفلسفية مألوفة في عصره[6]. وقد أشار البيروني إلى منهجه في دراسة الفكر الهندوسي بقوله:

«إنما هو حكاية لمقالات الهند كما هي.»[7]

ويكشف هذا النص عن وعي منهجي واضح بأهمية الحياد العلمي في دراسة الأديان والثقافات الأخرى، وهو ما جعل كتاب تحقيق ما للهند من أوائل الأعمال التي اتسمت بالنزعة الوصفية التحليلية في دراسة الحضارات[8].

كما أسهمت دراسة البيروني في نقل جانب مهم من الفلسفة الهندية إلى العالم الإسلامي، وأصبحت مصدرًا رئيسيًا للباحثين المعاصرين في دراسة الفكر الهندي في العصور الوسطى[9].

أما هوستن سميث فقد قدّم قراءة حديثة لمفهوم البرهمان ضمن إطار الدراسات الأكاديمية للأديان، حيث ركّز على تحليل التجربة الروحية التي تعبّر عنها النصوص الهندوسية، ورأى أن البرهمان يمثل الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها الرؤية الكونية للهندوسية[10].

ومن خلال المقارنة بين القراءتين يتضح أن تفسير مفهوم البرهمان يتأثر بصورة كبيرة بالسياق الحضاري والمنهجي الذي ينتمي إليه الباحث؛ فالبيروني حاول تفسيره من خلال المفاهيم الفلسفية الإسلامية، بينما فسّره سميث في إطار المناهج الحديثة في دراسة الأديان[11].

ومع ذلك، فإن كلا التفسيرين يسهم في تقديم فهم أعمق للفلسفة الدينية الهندوسية، لأنهما يكشفان عن البعد الكوني لمفهوم البرهمان بوصفه الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الوجود[12].

---

(1) Smart, *The Science of Religion and the Sociology of Knowledge*, p.41.
(2) Huston, *The World's Religions*, p.58
(3) Flood, *An Introduction to Hinduism*, p.96.
(4) Wilhelm, *India and Europe*, p.62.
(5) Huston, *The World's Religions*, pp.52-58.
(6) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، *تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة*، ص7.
(7) البيروني، المصدر نفسه، ص7
(8) Smart, *The Science of Religion and the Sociology of Knowledge*, p.41
(9) Dasgupta, *A History of Indian Philosophy*, , p.436
(10) Huston, The World's Religions, p.52.
(11) Wilhelm, India and Europe, p.82.
(12) Flood, *An Introduction to Hinduism*, , p.84

2. دلالات القراءة المقارنة في الدراسات الدينية

تكشف المقارنة بين تفسير البيروني وتفسير سميث عن أهمية الدراسات المقارنة للأديان في بناء فهم أكثر شمولًا للتقاليد الفكرية المختلفة[1]. فالبيروني قدّم نموذجًا مبكرًا للفهم العابر للحضارات، بينما مثّل سميث نموذجًا حديثًا يعتمد على المناهج الأكاديمية والظاهراتية في تحليل الظواهر الدينية[2].

ومن هنا فإن الجمع بين هاتين المقاربتين يساعد على بناء فهم أعمق للفلسفة الهندوسية، كما يكشف عن أوجه التفاعل الفكري بين الحضارات المختلفة[3]12. وقد أشارت الدراسات الحديثة إلى أن فهم الأديان لا يمكن أن يتحقق من خلال منظور واحد، بل يتطلب تعدد المقاربات الفكرية والمنهجية[4].

كما تكشف هذه المقارنة عن قدرة المفاهيم الفلسفية الكبرى على الانتقال بين الثقافات المختلفة وإعادة تفسيرها في سياقات جديدة؛ فمفهوم البرهمان الذي نشأ في إطار الحضارة الهندية أصبح موضوعًا للدراسة والتحليل في الفكر الإسلامي الوسيط، ثم في الدراسات الغربية الحديثة للأديان[5].

ومن هنا تتضح أهمية الدراسات المقارنة في الكشف عن المشتركات الفكرية بين الحضارات، وفي تعزيز فهم أكثر انفتاحًا للتجارب الدينية الإنسانية المختلفة[6].

3. الاستنتاجات النظرية للمقارنة

تكشف القراءة التحليلية لتفسير مفهوم البرهمان عند البيروني وسميث عن مجموعة من النتائج الفكرية المهمة التي تساعد على فهم طبيعة التفاعل الحضاري في دراسة الأديان والفلسفات الدينية[7].

أولًا، يتضح أن كلا الباحثين أدرك الطبيعة الميتافيزيقية لمفهوم البرهمان بوصفه الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الكون في الفكر الهندوسي[8]. فقد فسّر البيروني هذا المفهوم من خلال المصطلحات الفلسفية المعروفة في الفكر الإسلامي، مثل مفهوم "المبدأ الأول" و"العلة الأولى"18[9]، بينما ركّز سميث على البعد الروحي والميتافيزيقي للمفهوم، وعدّه التعبير الأبرز عن الرؤية الكونية للهندوسية19[10].

ثانيًا، تكشف المقارنة بين التفسيرين أن فهم المفاهيم الدينية يتأثر بصورة كبيرة بالسياق الحضاري والمنهجي الذي ينتمي إليه الباحث[11]. فالبيروني ينتمي إلى البيئة الفكرية الإسلامية في العصور الوسطى، بينما ينتمي سميث إلى السياق الأكاديمي الحديث الذي تشكّل ضمن حقل الدراسات المقارنة للأديان[12].

ثالثًا، تظهر هذه الدراسة أن تحليل المفاهيم الدينية يتطلب الجمع بين دراسة النصوص المؤسسة لهذه التقاليد وبين التحليل الفلسفي للمفاهيم التي تتضمنه[13]. وقد حاول كل من البيروني وسميث القيام بهذا الدور، رغم اختلاف الأدوات المنهجية التي اعتمدها كل منهما[1].

---

(1) Smart, "The Phenomenology of Religion, pp.272-278.
(2) Huston, The World's Religions, p.58.
(3) Sharma, *Classical Hindu Thought*p.88
(4) Smart, The Science of Religion and the Sociology of Knowledge, p.57.
(5) Wilhelm, India and Europe, p.91.
(6) Flood, An Introduction to Hinduism, p.96.
(7) Dasgupta, A History of Indian Philosophy, Vol.1, p.470.
(8) Huston, The World's Religions, p.60.
(9) البيروني، *تحقيق ما للهند*، ص48
(10) Huston, The World's Religions, p.61.
(11) Wilhelm, India and Europe, p.82.
(12) Smart, The Science of Religion and the Sociology of Knowledge, p.41.
(13) Radhakrishnan, *Indian Philosophy*, p.55.

رابعًا، تكشف هذه المقارنة أن مفهوم البرهمان يمثل أحد المفاهيم الفلسفية التي تعكس الرؤية الكونية للهندوسية، لأنه يقوم على فكرة وجود حقيقة مطلقة تشكّل أصل العالم ومصدر جميع الموجودات[2].

وأخيرًا، يمكن القول إن المقارنة بين قراءة البيروني وقراءة سميث تسهم في إبراز أهمية الفهم العابر للحضارات في دراسة الأديان، وتؤكد أن المفاهيم الدينية الكبرى لا يمكن فهمها بصورة كاملة إلا من خلال دراسة السياقات الحضارية والفكرية التي نشأت فيها[3].

المبحث الثالث

آفاق البحث المستقبلي ودلالات الدراسة للحوار بين الحضارات

1. آفاق البحث المستقبلي في دراسة مفهوم البرهمان

تكشف الدراسة المقارنة لتفسير مفهوم البرهمان عند البيروني وهوستن سميث عن عدد من المسارات البحثية التي يمكن أن تمثل امتدادًا علميًا للدراسات المقارنة للأديان والفلسفات الدينية[4]. فقد أظهرت المقارنة أن مفهوم البرهمان لا يقتصر على كونه مفهومًا دينيًا في الفكر الهندوسي، بل يمثل تصورًا فلسفيًا وميتافيزيقيًا يرتبط بفهم الكون والوجود والحقيقة المطلقة[5].

ومن هنا يمكن توسيع مجال البحث ليشمل دراسة تفسير البرهمان عند عدد من المفكرين المسلمين الذين اهتموا بالفلسفة الهندية أو بالمفاهيم الميتافيزيقية القريبة منها، مثل ابن سينا وابن رشد وغيرهما من فلاسفة الحضارة الإسلامية[6]. ومن شأن هذه الدراسات أن تساعد على فهم تطور التفسير الإسلامي للفلسفة الهندوسية عبر العصور، والكشف عن طبيعة التفاعل الفكري بين الحضارتين الإسلامية والهندية[7].

كما يمكن دراسة تطور تفسير مفهوم البرهمان في الدراسات الغربية الحديثة للأديان، ولا سيما في أعمال عدد من الباحثين المعاصرين مثل ميرتشا إليادة وويليم هالبفاس وغيرهما[8]. وقد تساعد هذه الدراسات على فهم الكيفية التي تطورت بها المقارنة بين الفلسفة الهندوسية والفلسفات الغربية الحديثة[9].

ومن المسارات البحثية المهمة أيضًا دراسة العلاقة بين مفهوم البرهمان وبعض المفاهيم الميتافيزيقية في الفلسفات والأديان الأخرى، مثل مفهوم الوجود المطلق في الفلسفة الإسلامية أو مفهوم المطلق في الفلسفة الغربية[10]. إذ إن مثل هذه الدراسات يمكن أن تسهم في تعميق فهم البعد الكوني للمفاهيم الدينية الكبرى، والكشف عن أوجه التشابه والاختلاف بينها [11].

كما يمكن توسيع نطاق الدراسة ليشمل تحليل حضور مفهوم البرهمان في مدارس الفيدانتا المختلفة، لما تمثله هذه المدارس من اتجاهات فلسفية متعددة داخل الفكر الهندوسي [12]. ومن شأن ذلك أن يساعد على

---

(1) Sharma, Classical Hindu Thought, p.88.
(2) Easwaran, *The Upanishads*, , p.21.
(3) Flood, *An Introduction to Hinduism*, p.101.
(4)Wilhelm, *India and Europe*, p.91.
(5) Dasgupta, A History of Indian Philosophy, p.470.
(6) Radhakrishnan, Indian Philosophy, p.55.
(7) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة،
(8) Eliade, The Sacred and the Profane, p.17.
(9) Wilhelm, *India and Europe*, p.82.
(10) Sharma, Classical Hindu Thought, p.88.
(11) Flood, An Introduction to Hinduism, p.96.
(12) Dasgupta, A History of Indian Philosophy, Vol.1, p.436.

فهم تطور هذا المفهوم عبر المراحل التاريخية المختلفة، والفروقات بين التفسيرات التي قدمتها المدارس الفلسفية الهندوسية المتعددة[1].

2. دلالات الدراسة للحوار بين الحضارات

تكشف هذه الدراسة عن أهمية الحوار الفكري بين الحضارات في فهم المفاهيم الدينية والفلسفية الكبرى[2]. فقد أظهرت المقارنة بين البيروني وسميث أن المفاهيم الفلسفية يمكن أن تنتقل بين الثقافات المختلفة، وأن يعاد تفسيرها ضمن سياقات حضارية متباينة، وهو ما يعكس قدرة الفكر الإنساني على تجاوز الحدود الثقافية والجغرافية[3].

كما توضح الدراسة أن فهم الأديان والتقاليد الفكرية المختلفة يتطلب التحرر من الأحكام المسبقة، والوعي بتعدد المناظير الفكرية والمنهجية[4]. فقد نجح كل من البيروني وسميث في تقديم فهم معمق للفلسفة الهندوسية لأنهما حاولا فهم هذا التقليد الفكري من داخله، بدلًا من فرض تصورات مسبقة عليه[5]

ويُعدّ البيروني مثالًا مبكرًا للحوار الحضاري في الفكر الإسلامي، إذ سعى إلى نقل أفكار الهنود ومعتقداتهم بصورة دقيقة نسبيًا مقارنة بما كان شائعًا في عصره[6]. أما سميث فقد مثّل نموذجًا حديثًا للدراسات المقارنة للأديان التي تقوم على فهم التجربة الدينية بوصفها جزءًا من الخبرة الإنسانية المشتركة[7].

ومن هنا فإن هذه الدراسة تؤكد أن الحوار بين الحضارات لا يتحقق من خلال الجدل أو الصراع الفكري، بل من خلال الفهم المتبادل والبحث العلمي القائم على احترام خصوصية كل ثقافة وتقاليدها الفكرية[8].

الخاتمة

سعت هذه الدراسة إلى تحليل مفهوم البرهمان في الفكر الهندوسي من خلال قراءة مقارنة بين تفسيرين ينتميان إلى سياقين حضاريين مختلفين، هما تفسير أبي الريحان البيروني في القرن الخامس الهجري، وتفسير هوستن سميث في الدراسات الحديثة للأديان. وقد انطلقت الدراسة من فرضية مفادها أن فهم المفاهيم الدينية الكبرى لا يكتمل إلا من خلال تحليل النصوص المؤسسة لهذه المفاهيم، ودراسة السياقات الحضارية والفكرية التي ظهرت فيها تفسيراتها المختلفة.

وقد أظهرت الدراسة أن مفهوم البرهمان يمثل في الفلسفة الهندوسية الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الكون، وأن هذا المفهوم يشكل أحد أهم الأسس الميتافيزيقية للفكر الهندوسي كما يظهر في النصوص الفلسفية للأوبنشاد. وقد حاول كل من البيروني وهوستن سميث تفسير هذا المفهوم في إطار منهجي مختلف يعكس السياق الحضاري الذي ينتمي إليه كل منهما.

فالبيروني، الذي عاش في بيئة فكرية إسلامية في العصور الوسطى، حاول تفسير مفهوم البرهمان باستخدام المصطلحات الفلسفية المعروفة في الفكر الإسلامي، مثل مفهوم المبدأ الأول أو العلة الأولى. وقد سعى من خلال ذلك إلى نقل الفكر الهندوسي إلى القارئ المسلم بطريقة علمية تقوم على الوصف والتحليل.

---

(1) Zimmer, Philosophies of India, p.73.
(2) Smart, *The Science of Religion and the Sociology of Knowledge*, , p.57.
(3) Wilhelm, *India and Europe*, p.101
(4) Smart, "The Phenomenology of Religion," pp.272-278
(5) Huston, *The World's Religions*, , p.58
(6) البيروني، *تحقيق ما للهند*، ص7
(7) Huston, *The World's Religions*, p.60.
(8) Flood, *An Introduction to Hinduism*, p.101

أما هوستن سميث فقد تناول مفهوم البرهمان في إطار الدراسات الحديثة للأديان، حيث ركز على البعد الروحي والميتافيزيقي لهذا المفهوم، واعتبره التعبير الأبرز عن الرؤية الكونية للهندوسية.

وقد كشفت المقارنة بين هاتين القراءتين عن أن تفسير المفاهيم الدينية يتأثر إلى حد كبير بالسياق الحضاري والمنهجي الذي ينتمي إليه الباحث، كما أظهرت في الوقت نفسه وجود قدر من التقارب في فهم الطبيعة الميتافيزيقية لمفهوم البرهمان.

ومن هنا فإن هذه الدراسة تسهم في إبراز أهمية الدراسات المقارنة للأديان في فهم التقاليد الفكرية المختلفة، كما تؤكد أن الحوار الفكري بين الحضارات يمثل أحد أهم السبل لفهم المفاهيم الدينية والفلسفية الكبرى التي شكلت التراث الفكري للبشرية.

الاستنتاجات

يمكن تلخيص أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة في النقاط الآتية:

١ يمثل مفهوم البرهمان في الفكر الهندوسي الحقيقة المطلقة التي تقوم عليها بنية الكون، وهو أحد أهم المفاهيم الميتافيزيقية في الفلسفة الهندوسية.
٢ تعتمد الفلسفة الهندوسية في تفسير مفهوم البرهمان على النصوص الفلسفية للأوبنشاد التي تقدم تصورًا للحقيقة المطلقة بوصفها أصل الوجود ومصدر جميع الموجودات.
٣ قدم البيروني في كتابه تحقيق ما للهند أحد أقدم التفسيرات الإسلامية للفلسفة الهندوسية، وقد حاول تفسير مفهوم البرهمان باستخدام المصطلحات الفلسفية المعروفة في الفكر الإسلامي.
٤ يمثل تفسير البيروني للفكر الهندوسي نموذجًا مبكرًا لما يمكن تسميته الفهم العابر للحضارات، حيث سعى إلى نقل أفكار الهنود كما هي دون تشويه أو تحريف.
٥ قدم هوستن سميث تفسيرًا حديثًا لمفهوم البرهمان في إطار الدراسات المقارنة للأديان، حيث ركز على البعد الروحي والميتافيزيقي لهذا المفهوم.
٦ تكشف المقارنة بين تفسير البيروني وتفسير سميث عن اختلاف واضح في المنهج والسياق الحضاري، مع وجود قدر من التقارب في فهم الطبيعة الميتافيزيقية للبرهمان.
٧ تؤكد هذه الدراسة أن فهم المفاهيم الدينية الكبرى يتطلب الجمع بين التحليل النصي للنصوص المؤسسة والتحليل الفلسفي للمفاهيم التي تتضمنها هذه النصوص.
٨ تسهم الدراسات المقارنة للأديان في إبراز أوجه التفاعل الفكري بين الحضارات المختلفة، كما تساعد على فهم أعمق للمفاهيم الدينية والفلسفية الكبرى.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: قائمة النصوص المقدسة

- Chandogya Upanishad, in: Sarvepalli Radhakrishnan, The Principal Upanishads, London: George Allen & Unwin, 1953.
- Kena Upanishad, in: Eknath Easwaran, The Upanishads, California: Nilgiri Press, 2007.
- Mundaka Upanishad, in: Eknath Easwaran, The Upanishads, California: Nilgiri Press, 2007.
- Taittiriya Upanishad, in: Eknath Easwaran, The Upanishads, California: Nilgiri Press, 2007

ثانياً: قائمة المراجع الأجنبية

- Dasgupta, Surendranath, A History of Indian Philosophy, Vol.1, Cambridge: Cambridge University Press, 1922.
- Easwaran, Eknath, The Upanishads, California: Nilgiri Press, 2007.
- Eliade, Mircea, The Sacred and the Profane: The Nature of Religion, New York: Harcourt, Brace & World, 1959.
- Flood, Gavin, An Introduction to Hinduism, Cambridge: Cambridge University Press, 1996.
- Halbfass, Wilhelm, India and Europe: An Essay in Understanding, New York: SUNY Press.
- Nakamura, Hajime, A History of Early Vedānta Philosophy, Delhi: Motilal Banarsidass, 1989.
- Otto, Rudolf, The Idea of the Holy, Oxford: Oxford University Press, 1923.
- Radhakrishnan, Sarvepalli, The Principal Upanishads, London: George Allen & Unwin, 1953.
- Sharma, Arvind, Classical Hindu Thought, Oxford: Oxford University Press, 2000.
- Smart, Ninian, The Science of Religion and the Sociology of Knowledge, Princeton: Princeton University Press, 1973.
- Smith, Huston, Forgotten Truth: The Primordial Tradition, New York: Harper & Row, 1976.
- Smith, Huston, The World's Religions, New York: HarperCollins, 1991.
- Smith, Huston, "Is There a Perennial Philosophy?", Journal of Religion, Vol.75, No.2, 1995.
- Smith, Huston, "Why Religion Matters", The Tibet Journal, Vol.15, No.3, 1990.

ثالثاً: قائمة المراجع العربية

- أحمد شلبي، مقارنة الأديان، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- أبو الريحان البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق إدوارد سخاو، بيروت: دار صادر، 2000م.
- أبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، 1958م.
- حسين مجيب المصري، الهندوسية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج5، بيروت: دار العلم للملايين، 2002م.
- عبد الرحمن بدوي، فلسفة الهند، الكويت: وكالة المطبوعات.
- محمد عبد السلام محمد، تاريخ الفلسفة الهندية، القاهرة: دار الثقافة.
- هدى أحمد شوشة، «منهجية البيروني رحمه الله من خلال كتاب تحقيق ما للهند»، مجلة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، مج12، ع52، 2025م.